الباب الثانى

الحياة الروحية فى الجزيرة العربية فى
القرن الأول الهجرى

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

تقسيم الحياة الروحية
عند المسلمين إلى الزهد والتصوف

إن تقسيم الحياة الروحية عند المسلمين إلى قسمين رئيسيين ١ – الزهد ٢ – التصوف فيه من الافتعال الشيء الكثير. ولم يكن جولد تسيهر – فيما تصور المستشرقون المحدثون – أول من فعل هذا. لقد سبقه في هذه المحاولة كثيرون من مؤرخي الحياة الروحية عند المسلمين، وعلى الأخص ابن الجوزي في كتابه المشهور تلبيس إبليس، وابن خلدون في مقدمته. أما أن في هذا التقسيم افتعالاً، فهو واضح للأسباب الآتية: كلمة الزهد ليست مصطلحاً قرآنياً أو حديثياً. وكان رواد الروح الأوائل في الإسلام يتعلقون بالمصطلح القرآني أو بالمصطلح الحديثي يعيشون فيه ويطلقونه على أنفسهم أو يطلق عليهم أو ينحتون مصطلحهم منه أو ينحت عليهم. ونحن نعلم أن أول مصطلح أطلق على رواد الحياة الروحية الإسلامية الأولين كان مصطلح الصحابة. هؤلاء الذين تخلوا عن عبادة الأوثان ونأوا عن حياة الجاهلية – ملذاتها وآثامها وشرورها وأوضارها. آمنوا بالتوحيد – وأقبلوا يستمعون إلى القرآن ويتدبرونه. ثم حين تخلى الكثيرون منهم عن أموالهم ومتاعهم وقبائلهم، وانتقلوا إلى المدينة، سموا بالمهاجرين، وسمي من فعل هذا من أهل المدينة بالأنصار، وتشملهم كلمة الصحابة جميعاً.

ولما أقبل الناس على الإسلام، وفشا في الغني والفقير، وفي الأفخاذ وفي العشائر والقبائل، سمي أهل الروح من الصحابة بالقراء، كما ظهر مصطلح أهل الصفة والفقراء. وبقي اسم القراء علماً على أصحاب القرآن ودارسيه في عهد الخلفاء الثلاثة الأوائل. ثم ظهر في عهد الخليفة الرابع اسم «المعتزلة» وكان وسماً على من زهدوا النزاع بين علي وأعدائه، ولزموا دورهم للعبادة. وذهبوا للمرابطة في الثغور. وظهر في هذا الوقت أيضاً اسم العباد، كما ظهر اسم الخوارج أيضاً، وكانوا فرقة زاهدة، ومعظمهم من القراء. وبعد مقتل علي ثم ابنه الحسين، ظهرت طائفة التوابين والبكائين، ثم أنماط من أسماء فرق زاهدة أخرى – على تفاوت في الدرجات – القصاص والنساك والسائحين والمصلين والربانيين. ولم تظهر كلمة الزهاد في القرن الأول وأوائل القرن الثاني علماً على طائفة، كما ظهرت المصطلحات التي ذكرتها علماً

على طوائف . والسبب فى هذا كما قلت أن كلمة زهد لم ترد فى القرآن إلا فى موضع واحد وهو « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » يوسف آية (٢٠) وليس للكلمة فى هذا الموضع معنى روحى ، بينما ذكر الله فى كتابه الصادقين والصادقات ، والقانتين والقانتات ، والخاشعين والخاشعات والموقنين والمخلصين والمحسنين والخائفين ، والراجين والوجلين والعابدين والسائحين والصابرين ، والراضين والمتوكلين والمخبتين والأولياء والمتقين والمصطفين الأخيار والمجتبين والأبرار والمقربين ، كما ذكر المشاهدين والمطمئنين والسابقين والمقتصدين والمسارعين إلى الخيرات ، كما ذكر — كما قلت — الصحابة والعباد والنساك ، كما ذكر الحديث المكلمين والمحدثين « إن من أمتى مكلمين ومحدثين ، وإن عمر منهم » وذكر الشعث الغبر « رب أشعث أغبر ذى طمرين ، لو أقسم على الله لأبره » كما ذكر حديث القلب « استفت قلبك » [1] كما عرف رواد الروح فى الشام باسم « الجوعية » حقاً إن كل كلمة من هؤلاء تحوى معنى الزهد فى الدنيوية الجسدية وشهوات النفس ، ولكن لم تستخدم الكلمة علماً على مجموعة أبدا . وليس معنى هذا أن رواد الروح الأوائل لم يستخدموها على الإطلاق ، إنها استخدمت . ونرى الحسن البصرى يقول وقد سئل عن فقيه « وهل رأيت فقيهاً قط . إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، الراغب فى الآخرة ، والبصير بأمر دينه [2] وكان الحسن البصرى يرى أن كلمة الفقيه أوسع ، وتشمل المعانى الروحية ، كما تشمل المعانى العملية . فكلمة الزهد إذن كلمة حادثة ومتأخرة . وقد تنبه ابن الجوزى إلى هذا [3] . ولكن تقسيم الحياة الروحية الإسلامية سواء عند الأقدمين من أمثال ابن الجوزى نفسه ، ثم ابن خلدون ، أو عند المستشرقين من أمثال جولد تسيهر ونيكلسون وماسينيون انتهى إلى وضعها فى إطارين رئيسين : الزهد والتصوف ، ومع ما فى التقسيم من تعسف — كما قلت — إلا أنه ساد الدراسات الحديثة فى تاريخ التصوف وفى موضوعاته . وسأحاول فى كتابى هذا أن أعرض للمرحلة الأولى من الحياة الروحية الإسلامية تحت أسمائها الحقيقية ، وإن كان يشملها جميعاً — اسم مرحلة الأخلاق العملية لدى أهل الروح فى الإسلام ، ثم مرحلة التصوف وهى مرحلة الأخلاق النظرية ومع نظريات فلسفية ميتافيزيقية أو نظريات نفسية — ثم مرحلة التصوف الفلسفى — وهى مرحلة الفلسفة النظرية البحتة .

وقد قلت من قبل إن المستشرقين يدعون أن جولد تسيهر هو أول من وضع التخطيط العام لفكرة

(١) الطوسى : اللمع ص ٣٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٦ .

(٣) الجوزى : تلبيس إبليس ص ١٦١ .

تقسيم الحياة الروحية عند المسلمين إلى زهد وتصوف ، وأنه وجد لدى المسلمين نفس التقسيم الذى وجد فى اليهودية والمسيحية من قبل – وهو التقسيم المشهور إلى (ا) الحياة المتطهرة (ب) الحياة الإشراقية . وسنجد عبث هذه المقارنة حين نبحث – موضوعياً – تطور الحياة الروحية الإسلامية ، أما التقسيم ذاته ، فقد سبقه فيه ابن الجوزى من ناحية ، وابن خلدون من ناحية أخرى .

يقرر إبن الجوزى أن الزهاد نشأوا أولاً فى الإسلام . وكانت النسبة أولاً فى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الإيمان والإسلام ، ثم حدث اسم زاهد وعابد . ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد وتخلوا عن الدنيا ، وانقطعوا للعبادة ، واتخذوا فى ذلك طريقة معينة إختصوا بها ، وأخلاقاً تخلقوا بها . وفى موضع آخر يقرر أن الصوفية من جملة الزهاد ، انفردوا عن هؤلاء الزهاد بصفات وأحوال وتوسموا بسمات . ولذلك بحث الزهد فى فصل ، والتصوف فى فصل آخر (1) .

ثم كتب إبن خلدون فصلاً من أدق الفصول فى مقدمته عن التصوف . ويذهب ابن خلدون إلى أن التصوف علم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة «وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الهداية . وأصلها العكوف على العبادة والإنقطاع إلى الله ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف» فابن خلدون إذن توصل إلى أن التصوف بدأ زهداً ، وأنه كان عاماً فى الصحابة والتابعين . ثم يذكر أنه لما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة .

نص إبن خلدون عجيب فى أنه يقول إن الصحابة جميعاً كانوا من الزاهدين . وقد ذهب مؤرخو الصوفية وطبقاتهم إلى إعتبار العشرة المشهود لهم بالجنة من الصحابة «صوفية وزهاداً» – هذا بالرغم من أن البعض منهم قد أثرى ثراء فاحشاً . وقد هاجم المستشرقون ، نظرية زهد الصحابة جميعاً . ولم يفهم المستشرقون ما ذهب إليه مؤرخو الطبقات . قصد هؤلاء المؤرخون المسلمون نوعاً من الزهد عند هؤلاء الصحابة ، وهو الزهد فيما حرمه الله ، والإنفاق فى سبيل الله حين يدعو داعى الجهاد . وقد ذهب المستشرقون إلى أنه كانت هناك مجموعة من الصحابة وغيرهم تزهدت فعلاً ، ونسبوا تزهدها إلى دواع غير إسلامية ، ومن الأمثلة على هذا أبو ذر الغفارى وعامر بن عبد قيس . واعتبروا الأخير نباتياً وأوصلوه بالمذهب البوذى . وسنرى تهافت هذه الفكرة الأخيرة وعدم صحتها . وأن ما نسب إلى

---

(1) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ١٦ ، ١٦١ .

عامر بن عبد قيس كذب . ولكني أقول : إن الدنيا حقيقة أقبلت على المسلمين فى ذلك الوقت ، وأن كثيرين من الصحابة أثروا ثراء كبيراً ، وأنهم أخذوا من الدنيا نصيباً وزهدوا فى الحرام فقط ، وأنهم توسعوا وفسروا الإسلام تفسيراً فقهياً . وبجانب هذا وجدت طائفة على رأسها على بن أبى طالب وكثير من الصحابة – وقد نأوا بأنفسهم نأياً كاملاً عن كل ما يتصل بالدنيا بسبب ، زهدوا فى السبى والغنائم ، وهى حق حلال لهم بمقتضى قانون الإسلام ، بل بمقتضى قانون الحياة . وعاشوا عيشة تقشف نادرة . وسنرى فى عهد مشيخة الصحابة ، وفى عهد عثمان بن عفان ، كيف وقف أبو ذر الغفارى ينهى عن الكنوز . وينادى بنظرية المال السيال ، ويعلن أن المال مال المسلمين ، لا مال الله . وكيف قاومه المجتمع القرشى خاصة . وكان هذا المجتمع قد بدأ يسترد قوته الجاهلية وسطوته فى عهد الخليفة الثالث . وكيف بدأ هذا المد العاتى يضع أساساً لملكيات عريضة ، وكيف يقتنى الأموال ، وكيف يغلو فى الترف ، واتخذ دمشق مركزاً له . وكان لابد أن تقوم ثورة فى أعماق المجتمع العربى نفسه . ولذا أخطأ ابن خلدون حين قال : فلما خشى الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة . إن الإقبال على الدنيا بدأ فى القرن الأول وبدأ من مجموعة يطلق عليها خطأ اسم الصحابة ، ولكنهم هم الطلقاء من أهل مكة ومن بطن بنى عبد شمس ، وقاوم هذا زهاد الصحابة والتابعين ، وبدأت الحركة إسلامية عربية لا صلة لها بمؤثر خارجى ، وانتقلت بعد ذلك إلى المعتزلة فى البصرة ، وأقصد بالمعتزلة هنا لا المعتزلة الكلامية ، وإنما معتزلة الفتنة : فتنة على ومعاوية الذين عاشوا فى البصرة ، وافد المذهب ومعترك الآراء . وكان الناس – كما ذكرنا فى الجزء الأول من نشأة الفكر – يتعللون فى المعصية بالقدر ، ويغلون فى هذا غلوا كاملاً ، وظهر فى ذلك الوقت رجال من القدرية والمعتزلة يناهضون هذا ، وظهر فى الوقت نفسه الإمام الحسن البصرى مكوناً أول مدرسة فى الزهد فى الإسلام . فالزهد إذن ظهر بين الصحابة أنفسهم ، وميز البعض منهم عن الآخر .

ثم يذهب ابن خلدون إلى أنه لما أخذ هؤلاء بمذهب الزهد والتبتل والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة ، اختصوا بمآخذ مدركة لهم ، وذلك أن الإنسان بما هو إنسان ، إنما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك وإدراكه نوعان :

١ – إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم .

٢ – إدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والصبر والشكر ، وأمثال ذلك ، فالروح العاقل والمتصرف فى البدن ينشأ من إدراكات وإرادات وأحوال ، وهى التى يتميز بها الإنسان ،

وبعضها ينشأ من بعض ، كما ينشأ العلم عن الأدلة ، والفرح عن إدراك المؤلم والمتلذذ به ، وكذلك المريد فى مجاهدته وعبادته لابد أن ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة ، وتلك الحال إما أن تكون نوع عبادة ، فترسخ وتصير مقاماً للمريد ، وإما أن لا تكون عبادة ، وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ، ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام ، إلى أن ينتهى إلى التوحيد والمعرفة التى هى الغاية المطلوبة للسعادة .

إذن ففى رأى إبن خلدون أن الزهد ظهر فى القرن الثانى كمذهب واختص أصحابه به وانفردوا عن الناس بالعبادة . أى أنه كانت لهم حلقات معينة يتدارسون فيها على طريقة خاصة فى عبادتهم أو علمهم الجديد ، وقد ميز بينهم وبين طائفة أخرى بقوله : إن إدراك الناس نوعان : نوع يدرك العلوم العقلية التى يتناولها اليقين والشك والظن والوهم ونوع يدرك الأحوال القلبية والواردات التى ترد على الناس من حزن وقبض وبسط رضا وغضب . . إلخ ، وهم الذين يسعون سعياً كاملاً فى طريق ليس بالسهل فيقضون أوقاتهم فى العبادات ، حتى ترسخ فيهم ، ويترقون من مقام إلى مقام حتى ينتهوا إلى مقام التوحيد . ويرى إبن خلدون أن على المريد أن يترقى فى المقامات والأطوار التى سندها كلها الطاعة ، ويتقدمها الإيمان ، ويقارنها أحوال وصفات ومقامات ينتج عنها ثمرات معينة ، ثم تقام على هذه الثمرات ثمرات أخرى ، حتى ينتهى إلى مقام المقامات أى مقام التوحيد . ولكنه يضيف إلى مقام التوحيد مقام العرفان ، حتى يتميز الواصل بمقامين مقام الوحدة ومقام المعرفة . وإذا حدث تقصير فى النتيجة أو خلل ، فإنما يكون سببه التقصير والتقصير فى الطور الذى قبله ، والأمر كذلك فى كل خاطر نفسى أو قلبى . ولذلك يحتاج الصوفى إلى أن يحاسب نفسه فى سائر أعماله وينظر فى ضوء حقائقه لأن حصول النتائج عن الأعمال لازمة ، ثم هناك الباب الأعظم باب الشريعة ، ينبغى أن يعرض عليها كل ما وصل إليه من مقامات وإلا أفشى وإذا أفشى تناوله — كما تناول الحلاج سيف الشريعة لما صاح أنا الحق ، وحين كان على خشبته مصلوباً ، أرسل إليه أبو بكر الشبلى فاطمة الأموية تقول له ، إن الله أطلعك على سر من أسراره فأذعته ، فأذاقك طعم الحديد ، ولم يشفع له عند الصوفية من أهل السنة أنه فى هذا المقام صرخ بشهادة التوحيد الإسلامى ثم قال :

نديمى غير منسوب إلى شىء من الحيف
سقانى مثل ما يشرب كفعل الحر بالضيف
فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف

أى أن الحقيقة فيه أفعمت ، فما استطاع لها كتماناً فشريعة التصوف ، أن يعود بحقيقته إلى

الشريعة ، فيكتم ما يظن الجمهور أنه خلافها فى ظاهرها وباطناً يوافقها . ثم يضع إبن خلدون أساساً للزهد وللتصوف ، وهو أنه لابد للصوفى من الإتيان بالطاعات خاصة من نظر الفقه ، أى أن يقبض الصوفى على الفقه بيده حين تتناوله الأذواق والمواجيد ، ليعلم أنها خالصة من التقصير فى الشريعة . فالطريقة إذن كلها محاسبة النفس على الأعمال . ثم أن يتكلم الصوفى فى الأذواق والمواجيد التى تحدث عن المجاهدات حتى تستكن فى النفس مقاماً يترقى منه إلى غيره ، على أن يكون ذلك كله متوافقاً مع الشريعة .

ويضيف ابن خلدون إلى أن لهم اصطلاحات فى ألفاظ تدور بينهم . ولهذا اختصوا بهذا النوع من العلم الذى ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة أو الكلام . أو بمعنى أدق صار الفقه فقهين :

١ – فقهاً مخصوصاً بالفقهاء وأهل الفتاوى ، وهم أهل الأحكام العامة فى العبادات والعادات والمعاملات .

٢ – فقهاً خاصًّا بالمجاهدة ومحاسبة النفس والكلام فى الأذواق والمواجيد التى يتناولها الصوفى وكيف يترقى الفقيه أو الصوفى من واحدة إلى أخرى ، ولما دونت العلوم ، وكتب الفقهاء بالمعنى الجزئى فقههم ، كتب أيضاً الفقهاء من الصوفية فقههم الصوفى . ويبدو أن الطريقين قد إختلفا – لا كما يذكر إبن خلدون – والصوفية الفلاسفة ، بل أيضاً بين الفقهاء المخصوصين بالفقه وبين ما أسميهم أنا الفقهاء المخصوصين بالتصوف[1] .

وسننتقل الآن إلى بحث الحياة الروحية فى الجزيرة العربية ، وهل ثمت عوامل خارجية أثرت فيها . وهل امتدت هذه العوامل إلى الحياة الروحية فى الإسلام – فيما بعد .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٧ – ٤٦٩ .

الفصل الثانى

الحياة الروحية

لدى العرب الجاهليين

لم تكن الجزيرة العربية قبل الإسلام بمنأى عن التيارات الروحية أو الدينية التى كانت تسيطر على العالم وقتذاك . كانت هذه التيارات تصطرع وتعتلج ويحارب بعضها البعض فى أرجاء العالم المعروف . فكان لابد لها أن تدخل فى أركان من هذه الجزيرة الشاسعة ، وتحاول السيطرة على أفرادها ومجتمعاتها . وسنرى خلال عرضنا هذا إلى أى حد استطاعت النفاذ إلى هذا المجتمع ذى الملامح الخاصة ، الفاصلة بينه وبين غيره من المجتمعات المعاصرة له . ولقد ظن الباحثون مدة طويلة من الزمن أن هذا المجتمع الجاهلى كان يضم قبائل متناثرة تعيش عيشة ساذجة بدائية ، لا رباط بينها سوى مجموعة غير منظمة من العرف والتقاليد لكن اكتشاف مجموعة الآثار الحميرية والسبئية غيرت هذه الفكرة تغييراً كاملاً . وانطلق بعض الباحثين – فى ضوء الكتابات والآثار التى اكتشفت إلى وضع صورة مخالفة للصورة الأولى ، صورة لأمة تكونت ووضعت نظامها الاقتصادى والاجتماعى ، وازدهرت حياتها فى جنوب الجزيرة وشمالها ، ولكن الإمبراطوريات المصطرعة وقتذاك لم تتركها فى هدوء ، فتدخلت فى حياتها ، وتمزقت تلك الحياة فى الشمال وفى الجنوب ، وأصبحت مسرحاً من مسارح النزاع . ولكن بقى الوسط بمنأى عن هذا ، فاحتفظ وادى الحجاز بنقائه الأصيل ، وقد كان وادياً غير ذى زرع ، وفى وسطه البيت المقدس ، يذكر الجزيرة كلها بأنهم أولاد الذبيح ، ويتجه إليه العرب من كل فج فى الجزيرة يقيمون فيه عباداتهم على أى صورة يرضونها ، فكان البيت فى مكة رمزاً دائماً لوحدتهم الجنسية ، ولوحدتهم الدينية ، كما كان تشوقهم لأمل فى مستقبل قريب .

ولم تكن الأديان المختلفة التى كانت تسيطر على العالم وقتذاك بغافلة عن هذا المكان ، ولا عن أهميته الكبرى فى نزاعها الدامى فى زمن الفترة هذه ، فتسللت الواحدة بعد الأخرى ، محاولة أن تغزو المكان .

obeikandl.com

١ – المسيحية التقليدية ومسيحية الأسينين :

أتت المسيحية من الشمال ، كما أتت من الجنوب ، وأعتنق الغساسنة المسيحية ، كما أعتنقها أهل نجران . وكانت مسيحية الجزيرة العربية جميعاً مسيحية نصية ، لا تحاول الجدال أو أن تعرض لفكرة الثالوث – فكرة الواحد ذى الثلاث أقانيم ، أو فكرة الصلب ، كان كل هذا بعيداً عن فكر العربى وإحساسه .

وإنتشر الرهبان والقسس فى صوامع متعددة عبر الصحراء ، وعاش بعض النصارى حتى فى مكة نفسها . وسنرى واحداً أو أثنين منهما يظهران فى عهد الرسول نفسه ، وهما جبر ونسطاس . بل ذكر أن أولهما كان يعلم النبى ، وقد رد القرآن «ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين» وتنصر البعض من قريش ، كورقة بن نوفل ، وكان قريباً لخديجة زوج النبى ، كما تنصر عبيد الله بن جحش ، ثم تابع النبى ، وهاجر فيمن هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، وعاد هناك إلى نصرانيته ، وبقى فى الحبشة بعد عودة مهاجرة المسلمين إلى الحجاز ثانية [(١)] ثم إن هناك قصة الراهب بحيرا ، وقد قيل إنه قابل الرسول فى أثناء رحلته إلى الشام وأنه تعرف فيه علامات النبوة ، وقد ثبت إختلاق قصة هذا الراهب ، وتهافت مقابلته للرسول .

إن الثابت تماماً هو وجود المسيحية فى الحيرة وفى نجران . ومن نجران أتى الوفد المسيحى الذى قابل الرسول فى سهول المدينة وعلى تبة عالية ، تمت قصة المباهلة التى ذكرها القرآن ، والتى استخدمها الشيعة – فيما بعد – للدلالة على إمامة على وأولاده ، والتى أنتجت فى الأدب الشيعى أجمل الأساطير . واحتلت مكانها لدى غلاة الشيعة ، كما سيطرت على الإسماعيلية واليزيدية والنصيرية والدروز ، وحين حاولت هذه الطوائف الغالية أن تضفى على الخمسة من أشخاص المباهلة الرسول وعلى وفاطمة والحسن والحسين وسلمان القداسة لم تكن تتجه إلى التراث المسيحى بقدر ما اتجهت إلى التراث المزدكى أو الفارسى أو الغنوصى عامة .

ولكن ما لم يتنبه إليه الباحثون هو أثر الأسينيين وهى طائفة يهودية مسيحية عاشت فى قمران وكشفت عنها وثائق البحر الميت – وهى طائفة تؤمن بوجود مسيح – هو ملهم العدل والتقوى . ويشبه تماماً مسيح القرآن .

وأيا ما كان الأمر ، فقد عرف العرب الجاهليون المسيحية وحاولت المسيحية أن تتسلل إلى حياتهم

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٧ – ٤٧ .

الروحية ، فلم تستطع . كان هناك الرهبان فى صوامعهم . وكان هؤلاء فيما أعتقد من الأسينيين وكلمة أسينى تعنى فى الآرامية عيسوى – وهؤلاء – فيما أعتقد – هم المسيحيون الحقيقيون . وكان البدو يلجأون إليهم طلباً للماء أو للراحة ، وكانت رحلة قريش إلى الشام ، وقد تركت لنا المصادر بعض التفصيلات عن رحلات أبى سفيان والنضر بن الحارث وغيرهم إلى بلاد الشام ومقابلاتهم للمسيحيين . ولم تؤثر هذه الرحلات وهذه الاتصالات فى أعماق هؤلاء جميعاً ، كان أبو سفيان مجوسياً ، ولم يتنصر النضر بن الحارث ، بل كان يرنو هو إلى النبوة . وبقى سهل الحجاز . وثنيا فى ظاهره ، ينظر إلى أمور الحياة وما بعد الحياة نظرة واقعية محسوسة تصبغ كل حياته ، ولكن يضطرم فى نفسه تراث عميق يتصل بالبيت العتيق ، ويحس فى أعماقه أنه بقية من بانى هذا البيت إسماعيل بن إبراهيم . وحين بعث الرسول ، وذكرهم القرآن بأنهم أبناء إبراهيم ، إبراهيم الذى وضع قواعد البيت الحرام وأرساه وأسكن ذريته بواد غير ذى زرع فى جواره ، فهم جيران الله وضأنه ، استجابوا ، وسنرى كيف كانت فكرة البيت ملهمة للصوفية جميعاً ، حتى هؤلاء الذين غرقوا فى الغنوص ، كما سنرى فكرة ضأن الله تصبغ حياة الكثيرين من صوفية الإسلام ، بل سيحقق البعض منهم هذه الفكرة عملياً متابعين سنة إبراهيم وحلمه الذى لم يتحقق فى جدهم الأكبر إسماعيل ، ففدى بالذبيح ، فتقدموا هم ، محققين إسماعيل آخر مذبوحاً .

وحين دعى العرب إلى الإسلام ، آمنوا جميعاً به . وكانت غالبيتهم – كما نعلم وثنيين ، وأقلية مسيحية ويهودية .

وأنتهى من هذا إلى أنه لم يكن للمسيحية من أثر روحى فى حياة العرب قبل الإسلام . بل كان الإسلام نفسه هو أول من نبه العرب إلى حقيقة المسيح ، وطلب منهم الإيمان به ووضعه فى نسق أولى العزم من الرسل ، فى صورة رائعة جذابة ، فكان إيمانهم به عن طريق القرآن والحديث ، وكان تمجيدهم له تمجيداً إسلاميا بحتاً .

وبنى أبرهة لملك الحبشة القليس ، كنيسة كبيرة ليصرف العرب عن الكعبة – وأتى لهدمها . ووقف عبد المطلب سيد قريش . وهو ممسك بحلقة باب الكعبة يقول :

يا رب إن المرء يمنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدوا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدالك

بل إنه يذكر إبراهيم بانى الكعبة :

نحن أهل الله فى بلدته لم يزل ذاك على عهد إبرهم
نعبد الله وفينا شيمة صلة القربى وإيفاء الذمم
إن للبيت ربا مانعاً من يرده بآثام يصطلم

٢ – اليهودية وأثرها فى الجزيرة العربية :

وإذا انتقلنا إلى أثر اليهودية فى الحياة الروحية للجاهليين العرب ، نرى الأمر فى ظاهره يختلف تماماً عن أمر المسيحية وأثرها فى الجزيرة العربية فبينما لا نرى هجرة بيزنطية أوحبشية إلى البلاد العربية . نرى اليهود يلجأون إلى الجزيرة . كانت المسيحية تنزل ضرباتها العنيفة على اليهود فى كل مكان ، وكان اليهود أنفسهم يقتلون بعضهم البعض . ولم تجد بعض القبائل اليهودية حرماً آمناً سوى بلاد الحجاز ، فهاجروا إلى شمالها ، كما ذهب البعض منهم إلى اليمن . وما لبثت البطون اليهودية فى شمال الحجاز أن قامت ببناء المستعمرات وإنشاء الآطام . وأعطتهم الجزيرة أمناً وسكينة . بل تهودت بعض الأفخاذ العربية ، كما تهودت بعض قبائل اليمن . (١) ونحن لا يعنينا هذا التاريخ . ولكن نتساءل : هل أثر هؤلاء اليهود فى الحياة الروحية للعرب الجاهليين . هل نادوا بالتوحيد ، وقد كانوا هم فى هذا الوقت سدنته وحماته . إن القول بأنهم لم يدعوا العرب إلى اليهودية ، باعتبار ادعائهم – أنهم شعب الله المختار ، وأنه لا يدخل فى الدائرة الدينية اليهودية المغلقة سوى اليهودى جنساً ، قول كاذب ، إنهم أغلقوا فعلاً الدائرة اليهودية فى كل بلد دخلوه ، ولكنهم لم يفعلوا هذا فى الجزيرة العربية . كانت الأسباب قد انقطعت بينهم وبين اليهود فى كل البقاع ، وإستعربواتماماً . ودخلت بعض الأفخاذ فى يثرب فى دينهم ، وكانت الدولة اليهودية الحميرية فى اليمن دولة عربية . فمن المؤكد إذن أن اليهود دعوا إلى اليهودية ، وانطلق شعراؤهم يتغنون بها . ولكن المجموعة الكبرى العربية ظلت بعيدة كل البعد عن اليهودية والتفكير فيها . ولم تؤثر اليهودية أدنى تأثير فى مكة ، كما لم تتهود قبيلتا المدينة الكبيرتان الأوس والخزرج . وحين لم يبلغ اليهود مآربهم الدينية والسياسية والاقتصادية فى هاتين القبيلتين ، أثاروا بينهم العداوة والبغضاء . وكانت نتيجة هذه السياسة المنكرة حرب بعاث . التى كادت أن تفنى الأوس والخزرج . وحال دون هذا الإفناء اليهودى مبعث الرسول محمد ﷺ . ثم انحسرت اليهودية عن اليمن بعد حروب عنيفة بين

---

(١) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام ص ١–٤٩ .

الوثنيين العرب واليهود من ناحية ، وبين اليهود ومسيحيي الحبشة من ناحية أخرى . وعادت اليمن وثنية فى ظاهرها .

وعجباً أن ينكر العرب اليهودية ، وأن يتخلوا عنها ، وكانت تدعو إلى التوحيد ، وأن يبقى العرب على عبادة الأوثان . وكما قلت من قبل ، إن هذه العبادة كانت أصيلة موغلة فى نفوسهم ، كانت فى قلوبهم ذكريات متمكنة ولكنها غامضة عن تناسلهم من الذبيح إسماعيل ، وكانت هناك ذكرى من إسماعيل ، بقيت متمكنة وغير غامضة ، بل محسوسة ظاهرة تذكرهم به أيضاً ، هو البيت العتيق ، الكعبة ، فى قلب مكة . ولم يتمكن اليهود من صرف العرب عن بيتهم تجاه البيت المقدس ، كما حاول أبرهة أن يقضى عليه أيضاً ، وأن يبنى للناس بيتاً آخر يصدهم عنه . كان العرب جميعاً يؤمنون بأن البيت بيت الله ، وأن للبيت رباً يحميه . كما أعلن عبد المطلب سيد قريش من قبل . وقد حملوا أصنامهم إلى هذا البيت ، تقربهم زلفى إلى البيت ، ولئن كانت اليهودية قد فشلت فى جذب العرب إلى اليهودية ، فهل فشلت فى إذكاء حياة روحية لدى مجموعة من الأفراد . يرى البعض من الكتاب اليهود أن الحياة الروحية فى الجاهلية إنما تتضح لدى مجموعة عرفت باسم الأحناف ، وإذا كان الكتاب المسيحيون يذهبون إلى أن هذه المجموعة كانت مسيحية المنزع ، يذهب هؤلاء الكتاب اليهود إلى أن الأحناف كانوا فى حقيقة الأمر يتجهون إلى اليهودية . وسنبحث هذه المسألة بعد قليل ، وسنبين حقيقة هؤلاء الأحناف . وسنرى أنهم لم يكونوا مسيحيين ، كما أنهم لم يكونوا يهوداً . كما ذهب هؤلاء الكتاب اليهود إلى أن « صوفة » وهى المصدر التاريخى للتصوف ، إنما هى كلمة يهودية تعنى الحارس أو البصير فى الشئون الدينية ، وسنحقق هذه المسألة أيضاً . وسنرى بُعْدَ النظرية اليهودية عن الحقيقة .

٣ — الثنوية الفارسية فى الجزيرة العربية :

ودخلت المجوسية — أى الثنوية الفارسية إلى الجزيرة العربية . وكان أبرز من اعتنقوها من الأفراد هو أبو سفيان ، عدو الرسول محمد ﷺ . وكان الرجل على دهاء كبير ، حارب الإسلام تحت تأثير من مجوسيته أشد حرب . ولعل فكرة « السفيانى » ومهديته التى نشأت فى أطوار من عهود الدولة الأموية ، كانت نتاجاً لأفكار غنوصية ترددت فى هذه الأسرة القائمة ، كما كان للمجوسية الفارسية أيضاً أثرها فى مسيلمة المتنبى فى اليمن ، أثرت فى أعماقه وترددت فى البقية الباقية من آثاره التى تركت لنا ، وأثرت الغنوصية الفارسية أيضاً أثرها فى البعض من قبائل اليمن بجيلة وكنده وغيرهما . وستنتج فى الكوفة والمدائن وغيرهما فى العهد الإسلامى صوراً من التشيع ، وقد تظاهر أصحاب هذه المذاهب بالترهد

والتقشف . فأنتجوا فكرة المهدى الشيعى – آخذين من كل المذاهب الدخيلة على الإسلام . ولكن ينبغى أن نقرر أنه وإن كان قد أعتنق المجوسية أو الغنوصية الفارسية أفراد من العرب أو مجموعات قليلة منهم ، فإنها لم تؤثر فى المجموعة العربية الكبيرة أدنى تأثير . ولا نجد اسم المانوية أو المزدكية أو الديصانية أو المرقونية أو المانداثية أو الزرادشتية يتردد لديهم .

ولعل الاسم الوحيد الذى كان شائعاً لدى العرب هو اسم الصابئة ، وكان الفعل الذى نحتت منه الصابئة ، أى صبأ معروفاً لدى الجاهليين . ولقد اتهم النبى محمد ﷺ من مشيخة قريش بأنه «صبأ» وسيستخدم القرآن اسم الصابئة ، ولعل هذا الاسم قد عرف لدى العرب لصلته بجدهم الأكبر «إبراهيم» . وفيما عدا ذلك ، فشلت المجوسية أو الثنائية الفارسية فى جذب العرب الجاهليين أو فى إقامة حياة روحية لديهم .

٤ – البوذية والأديان الهندية فى الجزيرة العربية :

ولم تكن للبوذية أو للأديان الهندية عامة أثر فى حياة الجاهليين . كانت موانى اليمن مفتوحة لتجار الهنود ، ولكن لم تنفذ إتجاهات روحية أو دينية إلى مجتمع العرب من قبل هؤلاء . وسنرى تهافت أسطورة تأثر أحد التابعين – وهو عامر بن عبد القيس بالهنود كما سنرى أيضاً ، وحين نبحث الحياة الروحية لدى أوائل الصحابة ، أن طريقة تبتلهم لم تكن على طريقة طقوسية بوذية أو على نموذج جينى أو يوجى . لقد نأت المجموعة العربية الكبرى – كما رأينا – عن الأديان الداخلة والطارئة عليهم . تقربوا إلى الله بالأصنام والأوثان فى إصرار عجيب ، وأغلقوا منافذ عقولهم وقلوبهم دون اليهودية والمسيحية والمجوسية والبوذية ، وذلك لإيمانهم الكامل بأنهم ينتسبون إلى إسماعيل وأبيه إبراهيم . ولقد حاول المؤرخون أن يلقوا الضوء على تحول أولاد إسماعيل هؤلاء من دين التوحيد إلى عبادة الأنصاب . والتفسير الشائع : أنه حين كثر أولاد إسماعيل ، ابتعدوا عن بيت الله فى مكة ، منتشرين فى أرض الجزيرة طلباً للعيش ، أخذ كل منهم حجراً من جبال مكة ليذكرهم ببيت الله القائم فى واد غير ذى زرع ، ثم تعاقبت الأجيال ، وعبدوا الحجر ، وصنعت منه الأصنام ، يقول الأزرقى «إن بنى إسماعيل وجرهم من ساكنى مكة ضاقت عليهم مكة ، فتفسحوا فى البلاد ، . . . والتمسوا المعاش وأن أول ما كانت عليه عبادة الحجارة تعظيماً للحرم وصبابة بمكة وبالكعبة حيثما حلوا ، وضعوه . فطافوا به كالطواف بالكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة ، وأعجبهم من حجارة الحرم خاصة ، حتى خلفت الخلوف ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ،

فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ماكانت عليه الأمم من قبلهم من ضلالات، وانتجسوا ماكان يعبد قوم نوح منها على إرث ما كان بقي فيهم من ذكرها . وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به ، والحج والعمرة [١] » ثم كانوا يكرون راجعين إلى الكعبة – صبابة بها وشوقاً ، يضعون فيها أصنامهم وأوثانهم ، وعلى جدران الكعبة صوروا كل شيء ، حتى إبراهيم يستقسم بالأزلام ، ومريم وابنها عيسى [٢] وصور الملائكة – إناثاً وذكوراً ، ثم تماثيل أو أصنام لكل . نصبت الأصنام فى الكعبة ، رامزة إلى نواحي العبادة المتعددة ، حتى عبادة الجنس أو توثم الجنس ، أساف ونائلة ، أصحاب الأسطورة القائلة بأنهما زنيا فى الكعبة ، فمسخهما الله نصبين أو صنمين ، ثم عاد الناس يتمسحون بهما ويعبدونهما [٣] .

ونلاحظ كما قلنا من قبل ، إن التعظيم والعبادة لم تكن تتوجه نحو الأصنام فى ذاتها ، بقدر ما كانت تتجه نحو الكعبة ، بيت الله ، بيت إبراهيم وإسماعيل . وارتبطت قبائل العرب المتفرقة جميعاً فى وحدة دينية باطنية مركزها البيت المكى ، وجمعوا فيه نماذج العبادات جميعاً فى صورة الأوثان والأصنام ووضعوها فيه ، فإذا أقبلت الأشهر الحرم أقبلوا إليه للحج .

٥ – الأحناف :

وهنا يأتى السؤال الهام : هل قام من بين العرب فى الجاهلية من يذكرهم علانية بدين إبراهيم وإسماعيل ، بالتوحيد النقى الذى وضعه جدهم الأكبر ، وبنى لأجله البيت ، ليقيموا الصلاة فيه وبجانبه ، لله الواحد .

كان هنا وهناك طائفة عرفت باسم « الكهان » يلجأ إليهم العرب إذا حزبهم أمر من الأمور ، كان هؤلاء يسجعون فى نذرهم وبشاراتهم ونبوءاتهم ، ولكن لم يرد فى المصادر العربية ما ينبئ عن حياة روحية أو صلة بدين من الأديان لدى هؤلاء الكهان . وكان يقال إن لهؤلاء صلة بالجن والشياطين ولهم الرؤى والفراسة ، وقد اتهم الرسول محمد ﷺ بالكهانة وأن أقواله من قبيل أقوال هؤلاء . ورد القرآن على هذا رداً حاسماً .

ولكن الطائفة التى أعلنت – فى صراحة – إيمانها بالتوحيد الإبراهيمى أو الإسماعيلى ، فقد كانت

---

(١) الأزرقى : تاريخ مكة ج ١ ص ٦٧ .

(٢) نفس المصدر : ج ١ ص ١٠٤ – ١٠٥ .

(٣) الأزرقى تاريخ مكة ج ١ ص ٦٩ ، ٧٠ / ٧١ / ٧٢ وابن الكلبى : الأصنام ص ٢٩ ، ٣٠ .

طائفة الأحناف أو الحنفية ، والتي اتخذت اسم الدين الإبراهيمي علماً لها . وقد ذكر القرآن مصطلح «ملة إبراهيم حنيفا» دلالة على دين إبراهيم . وذهب البعض من مؤرخي العرب الأقدمين أنهم كانوا من أنبياء الفترة ، العهد الذي تراخى فيه الدين الذي أتى أخيراً توطئة لدين آت . ويوردون أحاديث عن النبي ﷺ أن البعض منهم كانوا أنبياء . فقد سئل النبي ﷺ عن خالد بن سنان العبسي فأجاب «ذاك نبي أضاعه قومه» وإني أشك في هذا الحديث دراية ورواية . إن الأحاديث الصحيحة مجمعة على أنه لم يكن بين عيسى ومحمد عليه السلام نبي فالحنفاء إذن طائفة من العرب ظهروا قبل البعثة النبوية في مواضع كثيرة من الجزيرة العربية ، ولم يقبلوا أديان العرب الموجودة ، وعاشوا في زهد وتنسك بعيدين إلى حد كبير عن مشاركة المجتمع الجاهلي حياته ، ووسم البعض منهم بالنبوة ، وأعلن معظمهم أنهم يتابعون دين الحنيفية ، دين إبراهيم ، وحفظت لنا الكتب العربية أسماء عدد كبير منهم كقس بن ساعدة الإيادي وخالد بن سنان العبسي ، وأمية بن أبي الصلت الثقفي وورقة بن نوفل وأبي ذر الغفاري . وذهب المستشرقون عامة ونيكلسون خاصة إلى أن هؤلاء الأحناف كانوا أثراً من آثار المسيحية في الجزيرة العربية . يرى نيكلسون – مستنداً على أبحاث فلهاوزن في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام – أن عرب الجاهلية كانوا على حظ قليل من التفكير الديني – وأنهم شغلوا بحياة مادية بحتة ، ولم يفكروا في حياة أخروية ، ولكن قامت المسيحية غير التقليدية وغير المنظمة بنشر بذور الزهد في الجزيرة العربية .

ويقرر نيكلسون أن العرب كانوا على معرفة – ولو سطحية – بعقائد الديانة المسيحية وطقوسها . ويستخلص من بعض أشعار العرب ما يدل على معرفة عرب البادية برهبان المسيحيين ، وأنهم كانوا يعظمون ويجلون هؤلاء الرهبان القابعين في صوامعهم ، وكانوا يهتدون بالأنوار المنبعثة من هذه الصوامع ، ويسيرون في الصحراء . وينتهي نيكلسون إلى القول بأن «هؤلاء الرهبان وغيرهم من الزهاد الهائمين على وجوههم ضربوا مثلاً للعرب الوثنيين في الزهد ، وحركوا في نفوس بعضهم ،وهم المعروفون بالحنفاء ، ميلاً إلى النفور من الأوثان ورفض عبادتها ، فدان هؤلاء بعقيدة التوحيد ، واصطنع بعضهم الزهد ومجاهدة النفس ، ولبسوا الصوف ، وحرموا على أنفسهم بعض أنواع الطعام ، وليس هناك من شك في أنه كان لهؤلاء الحنفاء بعض الأثر في محمد الذي كان معاصراً لكثير منهم ، وكان اثنان منهم ، متصلين به صلة قرابة أو نسب [1] » .

وقد توفي نيكلسون قبل اكتشاف وثائق البحر الميت المشهورة الآن – وقد كشفت لنا النقاب عن

(١) نيكلسون : في التصوف الإسلامي ص ٤٢ ، ٤٣ .

مجتمع قران – وكيف حاربه اليهود من ناحية والنصرانية الإغريقية من ناحية ، وكيف لجأ الكثير من هؤلاء إلى شمال الجزيرة العربية ، وهؤلاء هم الأسينيون أو العيسويون وقد قيل إن المسيح عيسى كان عضواً فى هذه الجماعة أو هو مسيحها .

علاوة على أن نيكلسون وغيره من المستشرقين استندوا على تصوير بعض المسيحيين من العرب لواحد من هؤلاء الحنفاء – وهو قس بن ساعدة الإيادى فى صورة مسيحية . فنى أخبار ابن كثير «أنه كان فى وفد عبد قيس حين وفدوا على النبي ﷺ الجارود بن المعلى بن حنش بن المعلى العبدى ، وكان نصرانيا ، وعالماً بالكتب المسيحية وتفسيرها ، والتراث الفارسى ، والفلسفة اليونانية والطب . وقد سأله الرسول ﷺ عن قس بن ساعدة : فأجابه الجارود ، وأخذ يصف قس بن ساعدة وصفاً تختلط فيه سمات اليهودية بسمات المسيحية ، فهو من ناحية سبط من أسباط العرب عمر ستمائة سنة ، ومن ناحية ثانية «كان يضج بالتسبيح ، على مثال المسيح» ، وكان يلبس مسوح الرهبان ، ويعيش معيشة السياح والرهبان ، بل ذهب الجارود إلى أن قسا أدرك رأس الحواريين سمعان – وسمعان – كان غنوصيا عنيفاً . ثم يعرض الجارود لآرائه فيقول إنه أول من تأله من العرب ووحد الله وأيقن بالبعث والنشور . ولكن ما يلبث الجارود أن يقول إنه «شوق إلى الحنيفية ، ودعا إلى اللاهوتية» وأنه دعا يوم عكاظ إلى عبادة الله الواحد الأحد فقال : «كلا – بل هو إله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثى ، رب الآخرة والأولى» وهذا يدل على أن الرجل لم يكن مسيحيا ، وإنما كان يدعو إلى الحنيفية ، دين إبراهيم ، وخلط الجارود بين مسيحيته هو ، ويبدو أن مسيحيته هو أيضاً لم تكن المسيحية المعهودة ، بل كانت مسيحية أسينية ، أو كانت متصلة بالسمعانية ، وبين حنيفية قس بن ساعدة . ومما يؤكد تمام التأكيد أن قس بن ساعدة كان على هذا الدين القديم المتصل بجد العرب الأكبر إبراهيم أو ابنه إسماعيل قوله : أو ما علمت أن ولد إسماعيل تركوا دين أبيهم ، واتبعوا الأضداد وعظموا الأنداد [1] » . وهذا ما يحسم الأمر تماماً فى عقيدة قس بن ساعدة . وكذلك إذا انتقلنا إلى بحث العقائد التى بشر بها أمية بن أبى الصلت الثقفى ، إنه أيضاً نظر فى كتب الأوائل «وتعبد لرب إبراهيم وإسماعيل» وحرم الخمر ، وشك فى الأوثان ونهى عن عبادتها . . . تعود قصص الأحناف العرب جميعاً إلى عبادة أو إحياء «دين إبراهيم وإسماعيل» ونحن لا نرى فى عقائدهم ظلا أو ظلالاً من فكرة التثليث ، ولم يعرفوا فكرة الصلب وهى أساس المسيحية . ثم إنهم كانوا يحجون إلى مكة ولا يحجون إلى بيت المقدس . فهم إذن بقايا لدين إسماعيل ، هذا الدين الذى ترك فى نفوسهم آثاره العميقة ، حتى استكشفوه فى أنفسهم . ولقد كان فى استطاعتهم أن يعلنوا مسيحيتهم ، لو اعتنقوها ،

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

كما اعتنقها البعض من العرب ، أوأن ينتموا إلى السمعانية ، وهى فرقة منحرفة عن المسيحية المعهودة ، وتحملت ضربات المسيحية العنيفة ، ولكن الصحراء كانت درءًا للعرب لوأرادوا اعتناقها . غير أن هذا لم يحدث قط .

وهنا يأتى الاحتمال الآخر : وهوصلة هؤلاء الأحناف باليهودية . هل كانوا أثرًا من آثاراليهودية . ذهب بعض الكتاب إلى أن هؤلاء الحنفاء تأثروا فعلاً باليهود ، بل كانوا صدى لليهودية فى العالم العربى . وقد ذهب إبن هشام وغيره من مؤرخى السيرة – وبالتالى فترة ما قبل الإسلام – إلى أن إصلاح ملة إبراهيم كان ذائعاً فى الجزيرة العربية قبل ظهورالإسلام ، واشتهر به أفراد رفضوا عبادة الأوثان وخرجوا يلتمسون الحنيفية . ويقدم إسرائيل ،ولفنسون تفسيراً فيلولوجياً جديداً لإصطلاح «ملة إبراهيم» وهو أنه يعنى «كل من اختتن ودخل فى ذمة وعهد إبراهيم الخليل» ويقرر ولفنسون أن الختان وحده لا يؤدى إلى إعتبار المختتن يهوديا ، لأن هناك شروطاً أخرى لابد من توافرها كإعلان الدخول فى الدين اليهودى الموحد ، واتباع ما تأمر به التوراة واجتناب ما تنهى عنه ، والخضوع خضوعاً تامًّا أعمى للتلمود . لأجل هذا فقد أطلق اليهود على من يختتن دون أن يعتنق اليهودية اسم حنيف غير الصالح ، أى الختان غير الوافى بالشروط اليهودية . ويشير ولفنسون إلى أن لسان العرب يؤيد فكرته ، إذ ذكر اللسان أنه «كان فى الجاهلية يقال : من اختتن وحج البيت حنيف» وأن من سنة الحنيف الختان . . . «وتحنف الرجل – أى عمل عمل الحنيفية ويقال : اختتن» وينتهى إسرائيل ولفنسون إلى أن اليهود أطلقوا على العرب التى شاعت عندها عادة الختان هذا اللفظ . كانت غاية إسرائيل ولفنسون هى أن يثبت أن عادة الختان قد سرت إلى العرب من اليهود . وهذا لا يعنينا هنا – مع كذب هذا الادعاء ومع أنه فى فقرة سابقة يقول : «لا شك أن عادة الختان لم تسر من اليهود إلى العرب لأنها كانت شائعة عند قبائل مختلفة فى الجزيرة العربية منذ عصور غابرة» غير أن تحليله الفيلولوجى لمصطلح «ملة إبراهيم حنيفا» يثبت تماماً فكرتى التى أقررها وهى أن مجموعة من مفكرى العرب كانوا يشعرون بوضوح بأن العرب فارقت دينهم الأصلى دين إبراهيم وجدهم الأكبر إسماعيل . ويورد ولفنسون آراء فلهاوزن الذى يذهب إلى أن الحنيفية كانت مذهباً نصرانيًّا ذائع الصيت ، لكن Lesynshy يعارضه ويقول «إن الحنيفية لم تكن نصرانية ألبتة ، كما لم تكن مذهباً معيناً بل كان هناك أشخاص من مفكرى العرب استنكروا عبادة الأوثان ، متأثرين بتعاليم اليهودية والنصرانية ، ودخل بعضهم فى اليهودية ، ودخل بعض آخر فى النصرانية ، وبقى جماعة منهم غير متمسكين بدين من الأديان ، واستدل على ذلك بقول القرآن «ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفاً مسلماً» فإنه صريح فى أن الحنيفية لم تكن واحداً

منها » . ويورد إسرائيل ولفنسون – قصة زيد بن عمرو بن نفيل عن إبن هشام « إنه وقف ولم يدخل فى يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والميتة والذبائح التى تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل المؤدة وقال : أعبد رب إبراهيم . وبادأ قومه ، يعيب ما هم عليه . . . وكان زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : يا معشر قريش ، والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين إبراهيم غيرى [1] » .

ومن هذا نقرر أن الحنيفية هى دين إسماعيل ، أو ذكرى لهذا الدين الموحد الذى أتى به ، كان فى أعماق الأمة العربية ، وبقى فى هؤلاء الحنيفية حتى ظهور الإسلام[2] ونحن نعلم أن أبا ذر الغفارى كان واحداً من هؤلاء الحنيفية ، وأنه ذكر للمسلمين فيما بعد : أنه كان يتعبد على طريقة هؤلاء ، وأنه نأى عن الجاهلية نأياً كاملاً[3] وينبغى أن نلاحظ أن الغالبية الكبرى من الأحناف كانوا من قريش ، ولم تترك لنا المصادر أسماء هؤلاء الأحناف الذين ينتمون إلى قبائل المدينة ، حيث يعيش اليهود بجوارهم . كان الأحناف دائماً بمكة ، ومن القرشيين على وجه العموم .

٦ – الحمس :

وفى قريش أيضاً نرى الحمس . والأحمس لغويا المشتد الصلب فى الدين وسميت قريش حمساً لاشتدادهم فى الدين ، وذهابهم فى ذلك مذهب التزهد والتأله وأعلنوا « نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنوها » وقد قيل إن الرسول عليه السلام كان أحمسياً قبل مبعثه . وقد دخل مع القرشيين فى عقيدة الحمس ، بعض القبائل ، منهم قبيلة بنى صعصعة ، وستجد من بين هؤلاء – فى عهد النزاع بين على ومعاوية – من يقفون بجانب على ، ويضعون أسساً لكثير من العقائد الصوفية فيما بعد ، وجاء الإسلام ، فأنكر على الحمس كثيراً من عقائدهم . ولكن ما أود أن أوجه الأنظار إليه أن هؤلاء الحمس أيضاً كانوا يشعرون تمام الشعور بأنهم أهل الحرم وينتسبون إلى بانيه إبراهيم وإسماعيل .

٧ – صوفة :

وأخيراً – نصل إلى صوفة . وقد سبق أن ذكرنا قصة هذا الفخذ ونحن نتكلم عن إشتقاق كلمة

---

(١) الدكتور إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود ص ٧٨ – ٨٠ .
وأنظر ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٢٣٩ - ٢٤٧ .

(٢) إبن هشام . ج ١ ص ٢١١ – ٢١٦ .

(٣) الأزرق : تاريخ مكة ج ١ ص ١١٧ .

التصوف وقد أفاض إبن هشام (١) وغيره من المصادر الكلام فى هذا الفخذ. وكيف عرف الغوث ابن مر بأنه ربيط الكعبة وضأن الله . وذكرت أمه الأبيات الآتية :

إنى جعلت رب من بنيه ربيطة بمكة العلية
فباركن لى بها إليه واجعله لى من صالح البرية (٢)

وقلت إن أول من تنبه إلى فكرة ربيط الكعبة وضأن الله وصلتها بفكرة الذبيح إسماعيل هو الباحث العراق : الدكتوركامل مصطفى الشيبى .

وننتهى من بحث الحياة الروحية عند العرب قبل الإسلام بنتائج هامة : إن العرب – وهم أصحاب واقعية حسية بلا شك ، وفشلت الأساطير المركبة فى حياتهم (٣) – كانت لهم حياة روحية ، تمثلت فى فريقين رئيسين : الأحناف ، وصوفة وفى غيرهم من طوائف فرعية . كانوا يشعرون برغم عبادتهم للأصنام ، أنهم أولاد إسماعيل «الذبيح» وأن الكعبة بيت الله . وستؤثر هاتان الفكرتان أشد تأثير فى حياة المسلمين الروحية . فيتعلقون بفكرة «الذبيح» ضأن الله ، وسيحاول البعض منهم تحقيق «الفداء» فى نفسه ، وأن فكرة «تضحية» تضحية الكبش أو الضأن لا تتمم رسالة إسماعيل الجد الأكبر للعرب بل للإسلام عامة ، فيقدمون أنفسهم صائحين :

تهدى الأضاحى وأهدى مهجتى دمى . . .

وسيقف البعض الآخر منهم أمام البيت – بيت إسماعيل يرون فيه الوجود كله ، يرون الله ما دخله ، وما خرج منه . وسيعلن البعض الآخر أن الكعبة إنتقلت إلى قلوبهم ، ويتغنون بها أغنيات الروح . فلم تكن الحياة الروحية العربية قبل الإسلام حياة هشة ، كما ظن البعض ، كانت حياة مليئة بمختلف النزعات والاتجاهات . وجاءت رسالة الإسلام لتعيدها إلى أصلها النقى ، إلى دين إبراهيم وإسماعيل .

---

(١) إبن هشام : السيرة ج ١ ص ١٢٥ – ١٢٨ .

(٢) الأزرق : تاريخ مكة ج ١ ص ١٣١ .

(٣) الدكتور محمد عبد المعين خان : الأساطير العربية قبل الإسلام .

الفصل الثالث

الحياة الروحية

فى القرن الأول الهجرى

ظهر الإسلام فى قريش ، القبيلة الإسماعيلية العريقة ، وبجانب بيت إبراهيم وإسماعيل ، وظل تمجيد قريش – باعتبارهم أولاد إسماعيل – فى الإسلام ، كما كان فى الجاهلية . ويتبين هذا حين أعلن محمد ﷺ أن « الأئمة من قريش » . وقد ظلت إمرة المسلمين إليهم ، حتى نهاية العهد العباسى . ويتبين هذا أيضاً حين حول الوحى الإلهى قبلة المسلمين إلى الكعبة بيت إسماعيل ، وحين أكمل الرسول الحج إلى هذا البيت فى حجة الوداع ، مختتماً بهذا دورة الوحى ، ومقفلاً هذه الدائرة « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

١ – محمد النبى : أول الزهاد :

كان لابد إذن أن تكون حياة الرسول وتعاليمه شغل المسلمين إلى اليوم ، وأن يحاولوا صوغ حياتهم فى شتى آفاقها على مثاله ، وكما استمدوا من تعاليمه ، الجوانب العملية ، فأقاموا الفقه ، والجوانب العقلية ، فأقاموا الكلام أو الفلسفة ، اتجهوا إليه وإلى وحيه ، فأقاموا حياتهم الروحية .

وقد تعرض الباحثون من الأوربيين لحياة النبى ﷺ قبل بعثته وبعدها . وذهبت بهم الأهواء والنزعات إلى مختلف الآراء . فمرة يروى البعض منهم أن محمداً ﷺ كان مسيحيًّا قبل بعثته ، وأنه تأثر بالمسيحية حتى بعد نبوته ، مستندين فى هذا إلى أخبار غير موثوق بها أنه قابل الراهب بحيرى ، وأن أحد أقارب زوجه خديجة كان مسيحياً . ولكن سرعان ما يتبين لهم أن الرسول قد اختلف أشد الإختلاف مع المسيحية التقليدية فى كثير من عناصرها اللاهوتية الأساسية ، ويرى البعض أنه تأثر بالمسيحية الحقيقية – وهى مسيحية الاسينين – وهى التى أظهرتها وثائق البحر الميت منذ عام ١٩٤٧ م أو بالمذاهب المسيحية الخارجة ، كالسمعانية أو الديصانية أو المانوية أو المرقونية ، ولكن سرعان ما يثبت لهم أن القرآن قد هدم الغنوصية وأنكرها ولم يعترف بتجسد أو تناسخ أو ثنوية ، ويعرض البعض الآخر

obeikandl.com

لمحمد ﷺ على أنه كان يتعبد على اليهودية ، وأنه تجديد لأنبياء بنى إسرائيل ، ولكنهم يرون بعد ذلك شدة الوحى على اليهود ، واتهامهم بالكذب والغيلة ، وتحريف الكتاب السماوى ومحاربة اليهود له أشد حرب . ويرى البعض الثالث أن محمداً كان يتعبد على طريقة الصابئة . وقد أنكر القرآن – فيما بعد – على الصابئة عقائدها .

لقد تعددت الدعاوى وإختلفت ، وارتطم البعض منها مع البعض الآخر أشد الارتطام . وإنتهت . كان محمد ﷺ قبل مبعثه قرشياً ، يحس بإحساس قريش العارم أنه ولد إسماعيل ، ويتسمع إلى كل ما فى قريش من فضائل فيشعر به فى أعماقه . ويرنو إلى الكعبة بيت الله ، فيرى الأنصاب والأزلام والأنصاب والصور ، فينأى عنها ويبغضها . ولم يؤثر عنه أنه كان من أحناف الجاهلية ، بالرغم من أن واحداً منهم أو اثنين كانا على صلة نسب بزوجه خديجة ، ولم يتهمه سادة قريش حين أعلن مبعثه بأنه كان من هؤلاء الأحناف . ولم يخرج محمد ﷺ إلى الشام أبداً كما أثبتت الأبحاث الأخيرة ذلك ، ولا شك أن الرسول عليه السلام عرف المسيحية واليهودية ، ولكنه لم يتمسح ولم يتهود .

كان الطفل الصغير « راعى غنم » يقودها فى الصحراء ، وحيداً ، وهى تلتف به : الصحراء الشاسعة اللامتناهية . ويتسمع إلى حداء القوافل المارة ثم تلتف به الصحراء مرة ثانية ، ليتسمع أنغاماً حلوة تملأ أذنيه . . . وتمضى به الأيام . حتى بدأت تراوده الرؤى الصادقة . وتقول عائشة : « إن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من النبوة ، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح » وترى عائشة أن هذه الرؤى حببت إليه الخلوة « وحبب الله تعالى إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده » وكان يمضى إلى شعاب مكة وبطون أوديتها وكانت المرحلة الثالثة هى مرحلة التحنث . وللتحنث شروط : الشرط الأول : الخروج من الحنث أى الخروج من الإثم ، ثم المجاورة فى غار ، للتبرر . وكان الرسول يتحنث فى غار حراء . وكانت هذه عادة قرشية ، غير متصلة برهبنة مسيحية أو غيرها . يقول إبن هشام « وكان ذلك مما تحنث به قريش فى الجاهلية (١) وكانت قريش تأخذ معهم نساءهم ، وكذلك كان يفعل محمد ﷺ ، وكانوا فى هذا التحنث يتجهون إلى الله ، متحللين من ذنوبهم ، متعبدين . . . وفى غار حراء ، وعلى جبال مكة ، أتاه الوحى ، وأخذ عليه ميثاق النبيين .

وسنرى : فيما بعد أن مواقف الرسول عليه الصلاة والسلام قبل الإسلام تصبح مواقف لصوفية

(١) إبن هشام : السيرة ج ١ ص ٢٥٠ – ٢٥١ .

الإسلام فيما بعد : الرؤيا الصادقة ، والخلوة والتحنث . وأنذر محمد ﷺ عشيرته الأقربين . وكانت دعوتهم إليهم :

(ا) هى الدعوة إلى التوحيد الصافى النقى ، ومحاولة لاستكناه عقيدة إبراهيم وإسماعيل فيهم . وكانت الوثنية الجاهلية – كما قلت – غطاء هشا تخفى هذه العقيدة بما نصبته من أصنام ونصب . ولم يكن من العسير على رسول الله أن يحرك فيهم هذه العقيدة .

(ب) الدعوة إلى هجران الحياة الدنيوية المضطربة الآثمة التى صهرتهم فى طغيان فردى واجتماعى ، واختط الوحى لهم طريق الحياة الجديدة . وفرض عليهم الصلاة والصوم والزكاة . وقابله القرشيون بأشد مظاهر العنف .

(حـ) ذكرهم بالحياة الأخروية ، وخلود الروح ونشأة الجسد النشأة الثانية . ولم يفهم القرشيون هذ وأعلنوا مقاومته أشد المقاومة .

ولكن أقبل إليه رواد الروح ، يستمعون إلى القرآن ، خاشعين متصدعين . وهؤلاء هم الصحابة الأوائل ، مزيج من الأغنياء والفقراء ، ومن السادة والعبيد . . . يتبعون الداعى الجديد ، متخلين عن كل شىء دنيوى ، محتملين كل أنواع الأذى والاضطهاد والتعذيب ، وفى مكة حدثت واقعة الإسراء والمعراج فسرى الرسول إلى الملأ الأعلى وإلى بيت المقدس . وستكون واقعة المعراج والإسراء أكبر واقعات الصوفية – فيما بعد . وأقبل رهط من أهل يثرب إلى مكة واستمعوا إلى النبى ، وسرعان ما أسلموا . ثم تمت بيعة العقبة ، وهاجر الرسول إلى يثرب . وتكون المجتمع الجديد من الأنصار أهل المدينة ، والمهاجرين من أهل مكة ، ويجمعهم – كما نعلم – اسم الصحابة .

ومن العجب أن المستشرقين من مؤرخى الحياة الإسلامية إبان ذلك العهد – يرون أن الإسلام قد تغير فى المدينة ، بل إن أسلوب الوحى نفسه قد أصابه التغيير . وهذا خطأ ، كان الوحى المنزل فى مكة يقرأ عالياً فى أحياء المدينة ، وكان هذا الوحى أساس عقيدة التوحيد وأساس الإسلام . ولكن كان على الإسلام أن يواجه أعباء الحياة ، فأخذ يحدد قوانينه ، كما كان عليه أن يواجه التوراة والتلمود ، وأتباعها من يهود . كانت السور المكية فى معظمها قصيرة ، لأنها كانت تقود المؤمنين إلى «تجربة الروح» بينما كانت السور المدنية – فى معظمها طويلة ، لأنها كانت تعود المؤمنين بها إلى «تجربة الحياة» وكان على المسلم أن يعانى الاثنين معاً . ولكن نفس السور لم يتغير على الإطلاق . كما لم تتغير حياة الرسول ولا حياة صحابته . كان على الرسول وعلى صحابته أن يواجهوا أعباء الحياة ، ولم يدع الإسلام أبداً أنه أتى لإقامة حياة رهبانية فحسب ، بل أعلن أنه أتى لكى ينشىء حياة من نوع جديد ، يمتزج

فيها الجانبان – الجانب الروحي والجانب الجسدى . بل لا يتضح الجانب الروحي فى أمة من الأمم مما لم تعان الجانب الجسدى . وهكذا كان الإسلام فى المدينة ، ثم فيما بعد ذلك على مر العصور . وكان الصحابة بالذات فرسان النهار ، رهبان الليل .

٢ – طائفة القراء :

ولم يكن الرسول بغافل عن تعميق الجانب الروحي فى حياة المسلمين ، فسرعان ما إنتظمت طائفتان فى المدينة ، كان لهم الأثر الأكبر فى الحياة الإسلامية فيما بعد . أما الطائفة الأولى : فهى طائفة القراء . وهذه الطائفة كانت طائفة القرآن . يقول إبن نعيم صاحب الحلية : إن معظم هؤلاء كانوا من الأنصار «وكانوا يدعون القراء يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل» أو على حد تعبير إبن سعد «يلازمون الأعمدة ليلاً يتهجدون [١] » وكانوا إذا ما جنهم الليل ، آووا إلى معلم لهم بالمدينة يبيتون ويدرسون القرآن» وقد أرسل الرسول سبعين رجلاً منهم لبعض القبائل للدعوة ، فقتلوا فى بئر «معونة» ويصفهم صاحب الحلية بأنهم كانوا الطبقة الأولى من النساك والعارفين والعباد الذين إنقرض معظمهم على عهد رسول الله ﷺ ، ولم تكلمهم الدنيا ، ولم يتدنسوا بما فتح عليهم من زهرة الدنيا إفتتاناً . ويبدو أن المعلم الأكبر لهؤلاء كان عبد الله بن مسعود وقد ذكر أنه قال «إن هذا القرآن مأدبة الله ، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئاً ، فليفعل» كما وصف ابن مسعود هؤلاء القراء ، حملة القرآن فقال «ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله ، إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس يفطرون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون ، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخلطون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون . وينبغى لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً ، حكيماً ، عليماً سكيتاً ، ولا ينبغى لحامل القرآن أن يكون جافياً ، ولا غافلاً ، ولا صخاباً ، ولا صياحاً ولا حديداً [٢] » . كان هذا أبلغ وصف القرآنيين الأوائل ، ويبدو أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد عهد إلى عبد الله بن مسعود أن يقوم بهم ، وكان عبد الله بن مسعود من أوائل من تلقوا الوحى عن رسول الله . والشخصية الثانية الكبيرة من القراء : هى شخصية أبى الدرداء . وقد كان أبو الدرداء تاجراً ، ثم ترك التجارة مستمعاً إلى صوت القرآن «لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» وكان للقراء الدور الهام فى غزوات الرسول . ثم فى حروب الردة ، وكان نداؤهم فى الحروب : «يا أصحاب القرآن ، زينوا القرآن بالفعال» . وقد استشهد الكثير

---

(١) إبن سعد : طبقات ج ٣ ص ٣٦ و ٣٨ و ج ٦ ص ٢٥٥ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ١٢٣ و ١٣٠ – ١٣١ .

منهم فى حروب الردة ، ثم انتقلوا بعد الفتوح يعلمون الناس القرآن ، ويعقدون الحلقات فى المساجد . وكان أعظم هؤلاء القراء فى أيام الشيخين أبا موسى الأشعرى ، ويذكر صاحب الحلية عنه أنه كان يطوف فى مسجد البصرة يعقد الحلقات ويعلم الناس القرآن . وكان لا يأذن بالدخول عليه إلا لمن جمع القرآن ، وكان يعظهم ويقول «لا يطولن عليكم الأمد ، فتقسو قلوبكم ، كما قست قلوب أهل الكتاب» . «إن هذا القرآن كان لكم أجراً ، وكان عليكم وزراً ، فاتبعوا القرآن ، ولا يتبعنكم القرآن(١) » .

ولقد عاش القراء فرقة زاهدة ، فى عهد الخلفاء الثلاثة . وحين قامت الفتنة بين على ومعاوية ، وقفوا بجانب على . ثم انشقوا عنه ، ومنهم خرجت أكبر فرقة سياسية زاهدة هى فرقة الخوارج .

٣ – أهل الصفة :

أما الطائفة الثانية التى تمثل الحياة الزاهدة فى عصر الرسول ﷺ فى المدينة – فهى طائفة أهل الصفة ، وقد حاول بعض مؤرخى التصوف – كما قلنا من قبل – أن ينسبوا التصوف اشتقاقاً إليها . وقد بنى الرسول ﷺ الصفة فى ظلال المسجد لهؤلاء الفقراء من المهاجرين والأنصار . وقد عاش أهل الصفة عيشة زهد وتقشف ، «وكان عليهم جباب الصوف ، لم يكن عندهم غيرها» يقضون أوقاتهم فى قراءة القرآن وتدبره ، وفى الذكر والتفكر ، وكانوا من خاصة رسول الله . وكان الرسول يجرى عليهم أرزاقهم . وقد اعتبروا المثال الأول للمتجردين من الفقراء «لا يأوون إلى أهل ولا مال ، ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا مال ولم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا ، ولا يفرحوا إلا بما أيدوا به من العقبى» وقد حدث الوحى الرسول عنهم فقال : «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا» . وقد كلم جماعة من أشراف العرب النبى أن يترك هؤلاء ، لكى يتمكنوا من مجالسته ، فأبى ، وقال «الحمد لله الذى لم يمتنى ، حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى ، معكم المحيا ومعكم الممات . وقد ذكر عن رسول الله الحديث المشهور «رب أشعث أغبرذى طمرين ، لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك» وقد كان البراء بن مالك أحد أهل الصفة (٢) . وسيتخذ الصوفية بعد هذا الحديث ، ويعتبرونه من سمات الصوفى الكامل . كما أن أحدهم – وهو وابصة بن معبد الجهنى حفظ لنا الحديث المشهور عن رسول الله ، والذى يعتبر جوهر

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) أبو نعيم : حلقة الأولياء ج ١ ص ٣٢٧ – ٣٤٧ .

التصوف وهو : «يا وابصة جئت تسألني عن البر والإثم : يا وابصة أستفت قلبك : أستفت نفسك : البر ما اطمأن إليه القلب ، واطمأنت إليه النفس . والإثم ما حاك فى النفس ، وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك [١]» . وقد اعتنى بذكر هذه الطائفة وتتبع تاريخها أوائل مؤرخى التصوف مثل أبى سعيد الأعرابى فى كتابه «طبقات النساك» الذى لم يصل إلينا مع الأسف . كما فعل هذا أيضاً أبو عبد الرحمن السلمى ، والسبب فى هذا أن حياة هؤلاء وسيرهم كان توطئة «لمذهب التصوف على حد تعبير أبى نعيم .

٤ – طائفة التوابين والبكائين :

ووجد – بجانب هاتين الطائفتين – طائفة التوابين والبكائين . ولم تكن هذه الطائفة فرقة قائمة بذاتها ، تنتظم فى حلقات كما إنتظم القراء وأهل الصفة مثلاً ، وإنما كانت التوبة والبكاء طريقاً من طرق قدماء الصحابة ، سواء من أهل الصفة أو من غيرهم . وقد ذكر عن العرباض بن سارية – وهو من أهل الصفة – أنه كان من البكائين وفيه وفى أصحابه نزلت الآية : «وأعينهم تفيض من الدمع [٢]» . ومن الأمثلة على من اتخذوا هذا الطريق من الصحابة : مثال بهلول بن ذويب . وقد أورد جولد تسيهر ونيكلسون هذا المثال : فقد خرج هذا الصحابى إلى جبل بجوار المدينة ولبس لباس الشعر وربط يديه خلف ظهره بسلاسل من حديد وجعل يصيح «يا رب – انظر إلى بهلول يرسف فى الأغلال ويعترف بذنوبه» والمثال الآخر هو مثال أبى لبابة لما ندم على خيانة إرتكبها ، ربط نفسه إلى عامود فى مسجد المدينة وبقى على هذا الحال حتى أيقن أن الله غفر له» . ويذكر نيكلسون أن هناك أمثلة أخرى ، وأنواعاً أخرى من أساليب الندم والتوبة كانت متصلة بشعائر الحج إلى البيت الحرام . ويذكر أن كثيراً ما ذهب الحجاج إلى مكة مشاة حفاة الأقدام ، أو طافوا بالكعبة – وهم مقودون كالجمال بحلقات فى أنوفهم ، كما أن الكثيرين منهم قطعوا على أنفسهم عهد الصمت . وأن أبا بكر حين تولى الخلافة ، أبطل هذه العادة وإعتبرها من أعمال الجاهلية [٣] .

وجد الزهد إذن – والتفكر – والتأمل ووجدت طرق وأساليب كل هؤلاء . أم أن النبى كان فى أول الأمر «ينكر عليهم إصطناع المجاهدة وتعذيب النفس تكفيراً عن السيئات ، ثم يتراجع بعد ذلك –

---

(١) نفس المصدر : ج ٢ ص ٤ .

(٢) نيكلسون : فى التصوف الإسلامى ص ٢٢ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٣ .

حين رسخت قدم الزهد فى الإسلام ، فيقرهم على هذا » فقول خاطئ ، وعدم فهم لموقف الرسول ﷺ . أنكر الرسول على الصحابيين عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو بن العاص صيام الدهر «وتعذيب النفس» ، «وعدم السعى» و «إهمال الأسرة» وكان يريد أن يضع أصول الزهد الإسلامى ولذلك قال للصحابى عكاف بن وداعة الهلالى حين إمتنع عن الزواج «أنت إذن من إخوان الشياطين ، إن كنت من رهبان النصارى ، فالحق بهم . وإن كنت منا ، فمن سنتنا النكاح» . وإننا لنعلم «بعد» أن صوفية الإسلام الكبار تزوجوا وأولدوا الذرية ، فهل كان هذا حائلاً بينهم وبين التصوف . إن من الثابت علمياً أن التراث الصوفى الإسلامى ، هو أعظم تراث من نوعه قد وصلنا ، ولا يقاس به التراث الصوفى غير الإسلامى . فلم يقف الزواج إذن عقبة فى سبيل التصوف . وكان الرسول قد عمل على إقامة حياة روحية لا تتنافى مع «سنة الحياة» ولها «طابعها الخاص» وأطاع الصوفية فيما بعد سنة الرسول . وكان نتاج هؤلاء الصوفية أروع المذاهب الروحية والميتافيزيقية .

٥ – القرآن والحديث . . . وطريق الروح :

وإنتقل النبى محمد عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى . وقد ترك لرواد الروح النماذج الآتية : القرآن . والقرآن حمال أوجه . رسم فى تعاليمه «طريق الروح» كما رسم «طريق الجسد» عرض للناس الزهد فى الحرام ، كما عرض لهم الزهد فى الحلال . وأعطاهم الخيرة ، الحرية فى إختيار هذا أو ذاك . كانت دعوة القرآن هى «الحرية المكتسبة» لأحد الطريقين . ولم ينكر هذا الطريق أو ذاك . وسنرى فيما بعد – كيف يبدأ التصوف بإختيار الصوفية لطريق الروح ، وكيف دخلوا هذا الطريق ، باستنباط مباشر وتعميق للآيات الروحية فى القرآن .

أما النموذج الثانى فكان «الحديث» ، والحديث كالقرآن ، أصل من أصول الإسلام ، كما هو أصل من أصول التصوف . وقد إمتلأ الحديث أيضاً بأحاديث الروح . كما إمتلأ بأحاديث الجسد . وقد تمادى الصوفية فيما بعد – فى النموذج الحديث . لقد أحبوا الرسول ، وتغنوا به فى أشعارهم وفى نثرهم ، وكان من آثار هذا الحب أن حملوه أحاسيسهم ومداركهم ومشاعرهم : فأطلقوا كل هذه على لسانه ، واعتبروا المتحدث هو الأهم . ورأوا أنه هو المتقلب فيهم (تقلبك فى الساجدين) فضخمت مادة الحديث الصوفى الموضوع من الصوفية على لسان الرسول . وهذا طريق وعر – كما سأبين فيما بعد – أن يرى الصوفى فى نفسه حقيقة الرسول ، ويتكلم بإسمه ، ويعلن أنها أحاديث قدسية وغير قدسية . وإن التمسنا للصوفى العذر فى أنه فى حال الحب ، والمحب فإن ، فإن المنهج العلمى يضع كل شىء فى

مكانه ، محدداً موقوتاً ، وبالرغم من كل هذا ، فإن الأحاديث الصحيحة ، القوية السند ، الخالية من الوضع قد أنتجت تصوفاً خطيراً ، لا يقل أصالة عن التصوف المستند إلى الحديث الموضوع لقد إنبثق التصوف عند جماعة من أئمة السلف – من أمثال الهروى الأنصارى وإبن تيمية وابن قيم الجوزية . كما وجد قبل هؤلاء فرقة السالمية الصوفية والنموذج الثالث – حياة الرسول – وقد رأى الصوفية فيها مواقف التصوف الكبرى . وحاولوا محاكاة هذه المواقف ومراعاة سنته . وكانوا يرون فيه كما صرح أبو يزيد البسطامى – وهو فى حالة جذبة رائعة ، متأملاً جمال محمد العينى والمجرد – «إنه الفرد الأوحد» وسيأخذ الصوفية ، سواء كانوا من أهل السنة أو من الفلاسفة بحياته وسنته . وسيكون معراجه هو أساس التصوف كله – كما سنرى بعد . وسيتخذه الصوفية جميعاً المثل الأعلى للطبيعة الإنسانية ، فى موازاة للطبيعة النارية – طبيعة الشيطان ، أو فى موازاة للطبيعة النورية – طبيعة الملائكة . والنموذج الرابع : حياة أصحابه من الزاهدين ، القراء وأهل الصفة ، والتائبين والعابدين والنساك .

زهد الشيخين :

وأطل عهد الشيخين : أما عهد الشيخ الأول ، فلا نراه يختلف أدنى اختلاف عن عهد النبى ، فى حياة المسلمين الروحية . أما طائفة القراء – فقد كان عهد أبى بكر امتحاناً عسيراً لها فسرعان ما نفروا مع جيوش المسلمين لقتال كذاب اليمامة – مسيلمة . واستشهد عدد كبير منهم فى مواقعها المختلفة أما أهل الصفة فقد استمر نسق حياتهم فى عهد أبى بكر كما كان فى عهد الرسول . وكان الصاحب الأول زاهداً أشد الزهد ، يعاف الدنيا ويخشى فتنتها ، ويحاول قدر ما أمكنه أن يجنب صحابة الرسول أوضارها ، فحرم على أهل بدر الإمارة ، وحاول ألا يستخدمهم ، حتى لا تشوب حياتهم شائبة من دنيا .

وأقبل عصر عمر على المسلمين ، وإندفع المسلمون إلى بقاع الأرض ، وملكوا كنوزها ، وحطموا إمبراطورياتها . انهمر سيل الغنائم عليها . وأرسل عمر صحابة الرسول إلى الأمصار المختلفة ، يعلمون أهلها القرآن ، ويحكمون فيهم بكتاب الله وسنة رسوله . وقد نظر أحدهم وهو أبو موسى الأشعرى إلى المسلمين ، وقد أقبلت عليهم الدنيا فقال لابنه : يا بنى : لو شهدتنا ونحن مع النبى ﷺ ، إذا أصابتنا السماء لحسبت أن ريحنا ريح الضأن . ثم يعلم أبو موسى الأشعرى أن بعض المسلمين يمنعهم عن الجمعة أن لا ثياب لهم ، فدخل إلى بيته ، ولبس عباءة من صوف . ثم خرج فصلى بالناس . وأراد أن يحبب الناس فى لبس البسيط من الثياب – فيقرأ لهم حديث الرسول ﷺ «لقد مر بالصخرة من الروحاء

سبعون نبيا حفاة عليهم العباء» ويشرح لهم معنى القلب ، ويخشى عليهم من تقلباته «إنما سمى القلب لتقلبه ، وإنما مثل القلب مثل ريشة بفلاة من الأرض . ويحاول إشعال عاطفة الحزن فيهم «يا أيها الناس : إبكوا ، فإن لم تبكوا ، فتباكوا[1] ونرى صحابياً آخر من كبار القراء هو معاذ بن جبل ، يرى أيضاً أموال الأرض تقبل على المسلمين فيقول «ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم ، وستبلون بفتنة السراء ، وأخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء[2] .

ويعلن صحابى آخر من أهل الصفة القدماء وهو عبد الله بن أم مكتوم حديثاً للرسول ذكره لهم ، وقد ارتفعت الشمس فى يوم حر قاس ، وهم فى داخل حجراتهم فقال : يا أهل الحجرات : سعرت النار ، وجاءت الفتن كقطع الليل ، لو تعلمون لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا[3] ويقف صحابى آخر من أهل الصفة هو عقبة بن عامر الجهنى فى مصر ، وقد سكن بها ينادى الناس بحديث رسول الله «يجمع الناس فى صعيد واحد ، ينفذهم البصر ، ويسمعهم الداعى ، ثم ينادى مناد «سيعلم أهل الجمع لمن العز والكرم» ثم يقول «أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً» ثم يقول «أين الذين كانت لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله»[4] ولكن بينما كان كبار الصحابة يثرون وتأتيهم الأموال والغنائم تترى ، كان الخليفة الكبير يعيش فى المدينة عيشة تقشف نادرة ، وكان قد عرف بالتحديث» وقد ذكر النبى ﷺ هذا فقال «إن فى أمتى محدثين أى مكلمين – ومنهم عمر» . وكان عمر بإجماع الكتاب جميعاً مثلاً أعلى للتنسك وللتزهد . وحين ظهرت طائفة أطلقت على أنفسها اسم النساك ، وكانوا يسيرون فى تؤدة ووقار ، ويتكلمون بقدر ، سألت سيدة من سيدات المسلمين – هى الشفاء بنت عبد الله – عن أمر هؤلاء الناس أجيبت بأنهم طائفة النساك ، فقالت منكرة عليهم هذا «كان – والله عمر إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقاً» .

ومع أننى أوردت هذا النص ، لكى أثبت نسك عمر بن الخطاب الأصيل المنبعث عن طبيعة زاهدة ، فإن هذا النص ينبئ أيضاً عن ظهور طائفة النساك بعد وفاة عمر بن الخطاب .

عرف عن عمر بن الخطاب إذن التنسك – وهو أساس الزهد ، والتحديث أو التكليم – وهو

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٢٥٩ ، ٢٦١ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٣) نفس المصدر ج ص ٤ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٥ .

obeikandi.com

باصطلاح أحدث ظهوراً – العلم اللدنى أو الذوق – وهو أساس التصوف . ولا عجب بعد ذلك أن يربط مؤرخو التصوف بين عمر وبين أويس القرنى ، وأويس القرنى شخصية غامضة من شخصيات التابعين . عبر عنه صاحب الحلية بأنه «سيد العباد[1] وعلم الأصفياء من الزهاد .بشر به النبى ﷺ وأوصى به أصحابه» وسنجد عمر وعليا يحاولون لقاءه . وكان أويس – فيما تقول المصادر – يعيش متخفياً ، أشعث أغبر ذا طمرين . وتتحقق فيه صفات من أطلق عليه متأخرو الصوفية «قطب الغوث[2] » وسنعود إلى أويس بعد قليل .

٧ : عهد عثمان : ظهور الترف ومقاومته

وانزوى روح الزهد أو التنسك فى عهد الخليفة الثالث عثمان . كان عهد عمر بن الخطاب – عهد الغزو والفتوح ، بينما كان عهد عثمان – عهد الترف وجمع الأموال . ولم يكن للرجل يد فى هذا . لقد أقبلت الأموال فى أيام عمر وفى إثر أيامه ، واغتنى المسلمون أشد الغنى . وكان عمر قد استعمل عدداً كبيراً من بنى أمية فى الشام . وحين تولى عثمان أقرهم ، ولم يكن هؤلاء من الصحابة بمعنى الكلمة ، كانوا رجال حكم من الطراز الأول ، ورجال دنيا فى أعماقهم . فعاشوا فى قصور الشام ، كما عاشوا فى قصور البصرة والكوفة والمدائن عيشة مترفة ، تفوق حتى معيشتهم الناعمة الأولى فى مكة . ومن الإنصاف أن نقول : إن حيازة الأموال والضياع لم تكن مقصورة على هؤلاء الطلقاء «من بنى عبد شمس» بل كانت فاشية فى مجموعة كبيرة من الصحابة حتى المجاهدين والأنصار وأهل الصفة والقراء . ولكنها كانت أظهر وأصرح فى بنى عبد شمس . ولا شك أن مجموعة لا بأس بها أيضاً من الصحابة والتابعين والقراء آلمها كل الألم هذا المظهر الدنيوى الذى ساد الحياة الإسلامية ، وأنكرت أشد الإنكار أن يكون هذا هو الإسلام الحقيقى الذى دعا إليه محمد ﷺ ، وهو فى جوهره ثورة على المجتمع القرشى المترف ، أو بمعنى أدق ثورة على المجتمع المترف الإنسانى عامة . وتبلور الألم والإنكار فى ثورة فردية عارمة ، قام بها صاحب الرسول القديم أبو ذر الغفارى . إن هذا المتحنث القديم ، تذكر ما فعل به أشراف قريش ، حين أتى رسول الله إلى مكة ، وأعلن إسلامه ، فضربوه حتى كادوا أن يقتلوه . . . وقد جاهد أبو ذر الغفارى مع رسول الله فى جميع المشاهد ، حتى انتصر الإسلام ، وإنتصرت كلمة المساكين والفقراء والضعفاء ، ولم يلبث أشراف قريش ، أن تسللوا – تحت أسماء

---

(١) ابن سعد : طبقات ج ٣ ص ٢٠٨ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٧٩ وما بعدها .

وابن الجوزى : صفة الصفوة ج ٣ ص ٢٢ – ٣٠ .

الطلقاء – إلى الصدارة ، يعيدونها جذعة ويتحكمون مرة أخرى فى رقاب المسلمين. ويجمعون المال ويكنزونه. بل رأى صاحب الحب القديم عثمان بن عفان الذى شاركهم هم وبقية أصحاب الرسول وعاون بنفسه وماله . بل خرج عن ماله ، ليعيش حياة الفقراء فى مكة والمدينة ، يعين الطلقاء على الأمر ، ويمكن أقدامهم . . . وأعلن أبو ذر الثورة على الكنوز . وذهب إلى الشام وهناك هاله الأمر ، واختلف أشد الاختلاف مع والى دمشق – معاوية بن أبى سفيان ، فأعاده معاوية إلى المدينة وهو يقول : إن بنى أمية تهددنى بالفقر والقتل ، ولبطن الأرض أحب إلىّ من ظهرها ، وللفقر أحب إلىّ من الغنى . وأخذت الحلقات تنفض من حوله خوفاً من سطوة بنى أمية . وقد سئل ، لم تذهب الناس عنك – فقال : إنى أنهاهم عن الكنوز . ثم أعلن دعوته « إن خليلى صلى الله عليه وسلم – عهد إلى : أنه أيما ذهب أو فضة أوكى عليه ، فهو جمر على صاحبه حتى ينفقه فى سبيل الله عز وجل » فالمال مال المسلمين لا مال الله . وذهب أبو ذر إلى الكعبة فنادى المسلمين « يأيها الناس –أنا جندب الغفارى ، هلم إلى الأخ الناصح الشفيق » فاكتنفه الناس ، فقال : أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفرًا ، أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه : فقالوا بلى : قال : فسفر طريق يوم القيامة أبعد ما تريدون ، فخذوا منه ما يصلحكم . قالوا وما يصلحنا ؟ قال : حجوا حجة لعظائم الأمور ، صوموا يوماً شديداً حره لطول النشور صلوا ركعتين فى سواد الليل لوحشة القبور » ثم نهاهم عن الحرص الذى أذل أعناقهم . وقابل العابد السائح الخليفة عثمان ، وحاول الخليفة استمالته بالمال ولكنه صاح فيه « اعزموا دنياكم ، ودعونا وربنا وديننا » ويتهكم الخليفة عثمان عليه وأمامه كومة من أموال ويسأل كعب الأحبار « ما تقول فيمن جمع هذا المال ، فكان يتصدق منه ويعطى فى السبيل ، ويفعل ويفعل : فقال كعب : إنى لأرجو له خيرًا : ويغضب أبو ذر ويرفع العصا على كعب صائحاً « وما يدريك يا ابن اليهودية : ليودن صاحب هذا المال يوم القيامة كما لو كانت عقارب تلسع السويداء من قلبه » وكان المال الذى بين يدى الخليفة أموال عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وقد نقلت أمواله المكدسة إلى الخليفة بعد وفاته – لكى يقسمها بين ورثته . ويقول أبو ذر « إنى لأقربكم مجلساً من رسول الله ﷺ وذلك أنى سمعت رسول الله يقول « إن أقربكم منى مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئة ما تركته فيه » وإنه والله ما منكم من أحد إلا وقد تشبث بشىء منها غيرى » .

وتذكر أبو ذر هجرته إلى الرسول ، وتحديه لقريش فى عقر دارها – وكاد أن يقتل ، ولما عاد بجراحه إلى النبى صاح فيه « ألم ننهك عن العالمين » . . . وها هو يعود إلى قريش ، يتحداها مرة أخرى . وها

obeikandi.com

هو الخليفة الثالث من قريش ومن بطن بنى عبد شمس –ينفيه إلى الربذة . وتذكر صرخة الرسول الأخيرة له « ليموتن رجل بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين » وذهب إلى هناك ، أراد أن يعيش وحيدًا ، وأن يموت وحيدًا . وقد مر به المؤمنون . . . ومات بين أيديهم (١) .

أما الشخصية الثانية الزاهدة والتى سارت على سنة أبى ذر– فهى شخصية تابعى هو عامر بن عبد قيس (توفى قبل الستين) وتلميذ أبى موسى الأشعرى . وقد كان عامر بصريًّا . وقد تزهد الرجل ، بل كان رأس الزهد فى البصرة ، وممثله الحقيقى . وسنتكلم عنه بالتفصيل ، حين نتكلم عن زهد البصرة . إنما أوردناه هنا ، لأنه لم يكن زاهدًا أو عابدًا فحسب ، وإنما كان أيضاً آمرًا بالمعروف ، وناهياً عن المنكر . وقد راعه فساد الحاكمين ، وغناهم وترفهم ، فارتفع صوته بالنكير ، وسيره وإلى عثمان على البصرة إلى المدينة . وقد تقابل مع عثمان وتجادلا فى عنف ، ثم أعاده إلى البصرة ، ولكنه اختلف مع واليها ، وهو ينهاه عن الفساد والترف ، فأمر عثمان بإخراجه إلى الشام . ولم يكف فى الشام عن دعوته .

تلك هى صور من الزهد الإسلامى الأول . استند على حقيقة الإسلام الأولى ، وهى أن المال للجماعة ، وأن على ولاة الأمر أن يعيشوا عيشة الفقراء أو أدنى وإلا عاد الأمر رياسة قرشية أوملكا عضوضاً ، وقد أثبتت تطورات الحوادث فيما بعد ، أن أبا ذر كان على حق فى دعوته . إن كنوز بنى أمية فى الشام استخدمت ببراعة نادرة لإنشاء قيصرية أخرى وملكا متوارثا .

وكان زهد الصحابة أو بمعنى أدق عبادتهم أوتنسكهم ، فلم ترد كلمة الزهد أبدا– فى حياة هؤلاء ، كان هذا الزهد داخليا ، يمثل شغاف قلوبهم ، لم يكن هناك من مؤثر خارجى ، يدعو إلى هذه الثورة على حياة الترف وعدم زهد الحاكمين . فلم تقم ثورة على الحاكمين فى عهد الشيخين . لقد كان الشيخان يمثلان بساطة الإسلام الأولى ، ويعرفان عن كل ما يتصل بالترف الدنيوى بسبب . فتولى عباد الصحابة الشيخين بل عملوا لها ، ولم يتخلف سلمان الفارسى أو عمار بن ياسر ومعاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان عن العمل لها ، وتولوا الإمارات المختلفة فى أرجاء العالم الإسلامى الجديد باسمها . ولكن حين تولى عثمان ، عرض عباد الصحابة أعماله على « قانون الإسلام » الذى ارتسم فى كيانهم ، فرأوا الأمر يختلف ، والصورة تتنوع وتبتعد ، فجأر أبو ذر بصوته

وقد حمل مؤرخو الصوفية فيما بعد– أبا ذر الغفارى صورا من التصوف لم يقل بها ، واعتبروه من أصحاب المقامات والأحوال . وقد صح فعلا أن الرجل هو صاحب مقام « الفقر » كما فهمه المتأخرون

---

(١) ابو نعيم : الحلية ج ١ ص ١٥٦ – ١٥٧ وابن الجوزى : صفة الصفوة ج ١ ص ٢٣٨ – ٢٤٥ والدكتور الشيبي : الصلة بين التصوف والتشيع ج ١ ص ٣٨ – ٣٣ / ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

obeikandi.com

من الصوفية ، الفقر النابع عن حقيقة داخلية فيه . فقد زهد الرجل فى المال ، وقد كان فى يده ، ورفضه ، وهو يلقى عليه ويغرى به . ورفض التأويل الآخر للقرآن ، وكان يدعو لهذا التأويل الآخر ، الصحابى الثالث ، وخليفة رسول الله عثمان بن عفان- رجل لا يشك مسلم فى إيمانه ، ولكن أبا ذر رفض كل هذا ونأى عنه . ولذلك وضع السراج على لسان أبى ذر «إن قيامى بالحق لله تعالى لم يترك لى صديقا ، وإن خوفى من يوم الحساب ما ترك على بدنى لحما ، وإن يقينى بثواب الله ما ترك فى بيتى شيئا» وقد شك الدكتور كامل الشيبى فى هذا الخبر الذى يجعل من أبى ذر رجلا من أصحاب المواجيد . وحقا إن تطبيق النقد الداخلى على النص يثبت أنه ليس من نفس أبى ذر . ولكن مورخى الصوفية يطلقون على لسان المتقدمين من العباد ، الوصف المستشف من أحوالهم ومواجيدهم . كان هذا هو حال أبى ذر تماما وإن كان لم يعبر عنه بمثل هذه الألفاظ . كما تتبع الدكتور الشيبى أيضا قصة البكاء التى تروى عنه ، ورأى أنها صفة لم تؤثر عن أبى ذر ، أو أنه «أول من تكلم فى علم الفناء والبقاء» ورأى أنه ادعاء يحمل جرثومة تهافته [١] . كما أنكر الدكتور الشيبى أيضاً أن يكون أبوذر قد استخدم مصطلح «صاحب المنزل» دلالة على الله . ورجح أن هذا المصطلح لم يستخدم فى القرن الأول . وهذا كله حق . كان الرجل يتجه فقط إلى القرآن يتدبره ، ويستلهم مصطلحاته . ولم يخط كثيرا فى طريق التأويل .

وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم على المسلمين ، لقد قتل عثمان .

٨-على بن أبى طالب : ربانى الأمة

وتولى إمرة المؤمنين «ربانى الأمة» على بن أبى طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته ، والحوارى الذى نشأ طفلا يافعا فى رحاب النبوة ، يستلهم نواحيها ، ويعيش فى أنوارها . وبينما عرف الآخرون من صحابة محمد ﷺ الشر والخير ، وتقطعت أعينهم وأفئدتهم بين الجاهلية والإسلام وعانوا التجربة المرة ، نزاع الخير والشر فيهم ، لم يعرف على بن أبى طالب سوى الخير فقط ، ولم يعرف الجاهلية أبدا . وكان السادة من قريش بل أعمامه المقربون المحنكون بالتجارب ، الموقنون بأمانة الداعى الجديد يحاربون مطلع النور ، ويقفون من دعوة التوحيد- موقف العداء المطلق ، وكان أطفال قريش بعيدين فى لعبهم وصخبهم ، وهو- طفل فى الثامنة من عمره ، يتبع محمدا- أينما حل وأينما سار . يصلى- كما يصلى- ويتعبد كما يتعبد . ويتزل الوحى على الرسول ، ويقرؤه للطفل الصغير ، فينقش فى قلبه ، قويا صارخا .

---

(١) الدكتور كامل الشيبى : الصلة ج ١ ص ٣٢ .

وحين أنذر صلوات الله عليه عشيرته الأقربين . وفى العشيرة أبو طالب شيخ قريش ووالد على ، لم يستجب لمحمد واحد منهم ، سوى الطفل الصغير ، مبايعا على روحه وماله . ورأى الطفل الصغير أيضاً بعضاً من سادة قريش ممن عركتهم الجاهلية وأوضارها ، وعرفوا خبثها وكدرها ، يقبلون على ابن عمه وسيده ومعلمه الأكبر ، فيؤمنون به ، ورأى المستضعفين والعبيد يسرعون إلى رحاب الرسول ، مؤمنين خاشعين قانتين . وكم أحب على هؤلاء ، وأنس إليهم ، كما أنسوا إليه . وأحبهم أشد الحب ، كما أحبوه ، ومضت الأيام ، وعلى فى مشاهد الرسالة الكبرى ، يكتب دوره الكبير فيها طفلا وشابا . ومات الرسول ﷺ ، ونزل على مع جسده إلى القبر يوسده التراب ويلقى عليه النظرة الأخيرة . وتولى أبو بكر خلافة المسلمين ، وعاد على إلى بيته عابدا ، وفقيها للمسلمين وتولى عمر الخلافة بعد أبى بكر ، وعلى فى عبادته وفقهه ، وتولى عثمان الخلافة . ورأى على ، الصاحب الثالث عثمان الذى أحبه الرسول أشد الحب وأحبه هو أشد الحب ، يضع بنى أمية على رقاب المسلمين ، ويفسر الإسلام . الذى حارب هو لأجله أشد الحرب ، كما حارب صديقه عثمان نفسه لأجله أشد الحرب ، يفسره تفسير دنيويًا ، يبعد فيه عن جانبه العبادى ، الجانب الذى عاش على له ، وعرف الإسلام به ورأى كبار الصحابة يختلفون مع عثمان فى عنف وشدة ، رأى عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، يقفون من الخليفة موقف المعارضة ، ويرفعون أصواتهم فى كل مكان بالشكوى المريرة منه . ولكن العابد المتبتل لم يعارض ولم يختلف — اللهم مرة واحدة — حين رأى الخليفة ينفى العابد المتبتل الصاحب القديم لمحمد رسول الله أبا ذر ، لم يستطع صبراً عن أن يخرج هو ووالده الحسن والحسين لوداعه ، وأتى عثمان ومروان بن الحكم لمنعه ، وتلاحى الرجلان أشد التلاحى .

كان على بن أبى طالب «ربانى الأمة» ، كان كبير عبادها وزهادها وكبير علمائها . وكان الزهاد والعلماء يرون أنه الملجأ بعد مقتل عثمان الخليفة الضعيف الحيى الذى تسلقت مشيخة قريش على أعناقه مرة ثانية إلى حكم المسلمين . وتولى على إمارة المؤمنين ، والتف فعلا حوله البدريون من المهاجرين والأنصار . والتف حوله أيضاً العباد والقراء — ولسنا نؤرخ هنا لتفصيلات أو حتى عموميات النزاع السياسى بين على وأعدائه من مشيخة بنى أمية المترفين فى قصورهم فى الشام ، والذين بدءوا يستخدمون الكنوز فى تدعيم حكم قريش الأموى القديم ، إلا بقدر معاونة هذا النزاع السياسى على توضيح الحياة الروحية عند المسلمين وتطورها .

عاش على بن أبى طالب فى خلافة الشيخين حياة الفقيه العابد ، وكان يجمع القرآن ، وكان هذا

obeikandi.com

هو العهد الذى قطعه على نفسه حين قبض الرسول (١) ثم تمضى الليالى الطوال وهو يتعبد ويتهجد ويتأمل القرآن وكان الشيخان يلجآن إليه فى الفتاوى والأقضية الهامة التى كانت تلم بالمسلمين فى هذا العهد المتطور وقد كثرت الأحاديث الصحيحة وغير الصحيحة التى تؤكد تماماً أن عليا كان هو الوعاء الذى انقدح فيه العلم الإسلامى ، سواء أكان هذا العلم مستنبطا عن طريق الذوق أو عن طريق العقل . كان على بن أبى طالب – من بين الصحابة جميعاً – فارس الطريقين – وهذا ما دعا الشيعة من بعد إلى نسبة «علم سرى» لعلى بن أبى طالب . وأن هذا العلم قد أورثه إياه النبى . ولم يكن الأمر كذلك . لم يكن الأمر أمر علم سرى انتقل على تلك الطريقة الغنوصية ، والتى حاول الغلاة بالذات تحقيقها فى تدشين العلاقة العرفانية بين الرسول وبين على ، والتى ستجعل بعض الفرق سلمان الفارسى هو مشدها ، كما كان سلمان أيضاً مشدها بين النبى وبين الله . إنما الحقيقة أن عليا تربى فى حجر النبوة ، وحيى يتأملها ، واستمع للرسول محمد فى مواطن الوحى المتعددة . يلقى عليه بالقرآن . فتفتح قلب الحوارى الصغير وعظم ، وأصبح مرآة مجلوة تتأمل مجريات الحوادث ، وينصقل فيه الحكم والعبر ، فيلقيه إلى الناس نوعا من العلم المباشر يقذفه إليهم ، على صورة أخاذة ، وكبر القلب وعظمت المرآة المجلوة ، وحين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى ، وتولى الخلافة أبو بكر ، ثم عمر ، كان على مع قرآنه . ويعود إليه الخليفتان فيما استعصى عليهما من فقه . وكان على – على حد تعبير عمر – أقضانا . ثم حين تولى الخليفة الثالث عثمان الأمر ، اعتكف على أوكاد . وكانت حياته حياة عبادة وزهد . وقد ذهب الخيال بالشيعة فى كل واد . وكأن عليا فى فترة الخلفاء الثلاثة يعيش على رأس مجموعة خاصة تدبر الأمر لعودته إلى إمرة المؤمنين ، وعينوا له أركانا «سلمان وأبا ذر والمقداد وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان» . ولم يحدث هذا قط . إن الأسانيد التاريخية المختلفة تثبت تماماً أنه لم يكن ثمت أركان أو ثمت مؤامرة ، وإنما الحقيقة أن عليا كان سيد عباد المسلمين وزهادهم ، وكان هؤلاء الخمسة مثلاً عليا من أمثلة العبادة والزهد . فكان لابد أن تربطهم بعلى بن أبى طالب أوثق صلات المودة والمحبة . ومن الأمثلة على تعسف الشيعة فى ربط هؤلاء بعلى كأركان له – ما أوردوه على لسان سلمان فى على «لو حدثتكم بكل ما أعلم من فضائل أمير المؤمنين عليه السلام لقالت طائفة منكم هو مجنون ، وقالت طائفة أخرى «اللهم اغفر لقاتل سلمان» ونحن نعلم أن سلمان مات قبل خلافة على ، وقبل أن يتلقب على بلقب أمير المؤمنين – إن هذا اللقب الذى استحدث فى عهد عمر ، لم يطلق على على إلا حين تولى الخلافة ، فلا موضع إذن للقول إن سلمان

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ١ ص ٦٧ .

أطلقه على على قبل خلافته ، التى لم يحضرها هو(١) قد يقول الشيعة إن الأركان اعتبروا عليا أمير المؤمنين الحقيق إذن . ولكن هذا يقدح فى أخلاقية سلمان الفارسى الصاحب القديم لرسول الله ، كيف يفعل هذا الحوارى العتيق لمحمد ﷺ هذا ، وهو فى الوقت نفسه يعمل واليا على المدائن لعمربن الخطاب أمير المؤمنين فى المدينة (٢) ، والأمركذلك فى عمار بن ياسر . فقد عمل واليا لعمر بن الخطاب على الكوفة ، ولكنه أحب على ابن عم الرسول ، وسيد العباد واعتبر عليا إمام المساكين . وأحب أبو ذر الغفارى عليا بكل شغاف قلبه ، ولكنه لم يكن علـى الإطلاق يرمـى إلى إسباغ مجد دنيوى على ابن عم رسول الله . أما حذيفة بن اليمان فكان واليا على المدائن – وقد عرف بصاحب سر رسول الله ﷺ وكان يقول «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر (٣) وقد خصص الدكتوركامل الشيبي فصلا قيماً عن حذيفة بن اليمان . وذكر أن تميز حذيفة بلقب «صاحب السر» أثار مسألة طبيعة العلم فى الإسلام – هل هو علم واحد أم علمان : ظاهر وباطن . ويورد فكرة السراج صاحب اللمع أن فى الصحابة من كان مخصوصا بنوع من العلم ، كحذيفة ، فقد خص بعلم أسماء المنافقين ، وكان قد أسره إليه الرسول ، ثم يورد فكرة أبو طالب المكى صاحب قوت القلوب بأن حذيفة قد خص بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين من الصحابة (٤) . وحقا : قد ذكر عن حذيفة هذا . ويحاول الشيبي أن يثبت صلة علم حذيفة بعلم على . ولا ضير فى هذا ، وإنما محاولة إثبات أن حذيفة كان من أركان الشيعة ممن حاولوا إقامة خلافة على الدنيوية على المسلمين أمر متسر ، كان هؤلاء وغيرهم يحبون عليا ، لأن علياً كما قلت – يمثل فضائل الإسلام العليا من فقه وعلم وعبادة – كان حقاً صاحب الروح بعد رسول الله ﷺ .

وازدادت عبادة على بعد توليه الخلافة ، وها هو ينظر إلى المسلمين فيراهم تغيروا – فينظر فى كآبة ويقول : «لقد رأيت أثراً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فما أرى أحداً يشبههم . والله إن كانوا ليصبحون شعثا غبرا صفرا . بين أعينهم مثل ركب المعزى ، قد باتوا يتلون كتاب الله ، يراوحون بين أقدامهم وجباههم ، إذا ذكر الله ، مادوا كما تميد الشجرة فى يوم ريح ، فانهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم . والله لكأن القوم باتوا غافلين (٥) » . ولقد ذكر صاحب الحلية عن مجاهد بأن شيعة على هم

(١ ، ٢) وجهت تلميذتى سعاد على عبد الرزاق معيدة الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب نظرى إلى هذه الحقائق .

(٣) أبو نعيم حلية الأولياء ج ١ ص ٢٧٣ .

(٤) الدكتور كامل مصطفى الشيبي : الصلة . . ج ١ ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٥) أبو نعيم حلية . . ج ١ ص ٧٦ وابن الجوزى : صفة الصفوة ج ١ ص ١٢٨ .

العلماء الذبل الشفاه الأخيار الذين يعرفون بالرهبانية من أثر العبادة [١] » .

وكان على أكثر المسلمين صفاء وتحديثا ، وقد قلنا من قبل إن عمر كان يتميز أيضاً بهذه الموهبة . وقد فتح هذا بابا للشيعة فى نسبة العلم السرى له ، المنقول عن النبى ، أما الصوفية ، فاعتبروا علمه — علما لدنيا ، يدخل فى باى الكشف الصوفى ، بل كان على فى نظرهم أصل هذا العلم أو هذه المعرفة الذوقية الحدسية . ولقد أورد ابن الجوزى وأبو نعيم وصيته لتلميذه كميل بن زياد (قتل عام ٨٣) . فقد أخذ على بن أبى طالب بيد كميل بن زياد — وأخرجه إلى ناحية الجبانات — أى القبور — . . . وتنفس على نفساً طويلاً ثم تكلم عن القلوب فقال : ياكميل بن زياد . القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها — للعلم — احفظ ما أقول لك : الناس ثلاثة : عالم ربانى — ومتعلم على سبيل نجاة — وهمج رعاع أتباع كل ناعق — يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق » ثم يمضى على فى تفضيل العلم على المال ، ثم يخبره أن فى قلبه علما يخشى أن يلقنه الناس ، فلا يستحسنون استخدامه ، ولكنه لن يعدم حجج الله فى الأرض « بلى — لن تخلوا الأرض من قائم لله بحجة ، لكى لا تبطل حجج الله وبيناته ، أولئك هم الأقلون عددا الأعظمون عند الله قدرا ، بهم يحفظ الله حججه ، حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم . هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش عنه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان ، أرواحها معلقة بالمنظر الأول ، أولئك خلفاء الله فى بلاده ، ودعاته إلى دينه هاه هاه . . . شوقا إلى رؤيتهم ، وأستغفر الله لى ولك . إذا شئت فقم » [٢] القطعة من نفس على فعلاً ، وهى فى صميم الزهد بل التصوف ، وليس فيها غنوصية على الإطلاق . ولكن ما يلبث مؤرخو التصوف أن يضعوا على لسان عبد الله بن مسعود حديثا مسنداً « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، ما منها حرف إلا له ظهر وبطن ، وإن على بن أبى طالب عنده علم الظاهر والباطن » [٣] أو يذهب صاحب نهج البلاغة إلى أن علياً يعلن أنه اندمج على مكنون علم ، لو أباح به للناس ، لاضطربوا اضطراب الأرشية فى الطوى البعيدة ، ويذهب صوفى شيعى متأخر إلى الغلو ، فيورد حديثا بين على بن أبى طالب وبين تلميذه كميل بن زياد عن الحقيقة ، فإذا بعلى يجيب « الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة — فيقول كميل بن زياد — زدنى بياناً — فيجيب على : محو الموهوم ، وصحو المعلوم . فيقول كميل زدنى بيانا فيقول على : هتك

(١) ابن الجوزى : صفة الصفوة ج ١ ص ١٢٧ ، ١٢٨ وأبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٦٥ .

(٢) ابن الجوزى : صفة الصفوة ج ١ ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، وأبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) أبو نعيم الحلية ج ١ ص ٦٥ ، ح ١ ص ٨٤ ، ٨٥ .

الستر، لغلبة السر. فيقول كميل : زدنى بيانا . فيقول على : نور يشرق من صبح الأزل ، فيلوح على هياكل التوحيد بآثاره . فيقول كميل : زدنى بياناً : فيقول على : اطفئوا السراج ، فقد طلع الصباح [١] وهكذا اعتبر صاحب طرائق الحقائق على بن أبى طالب إشراقياً ينطق بنظرية النور الإشراقية ويتكلم عن هتك الستر وغلبة السر، والنور المشرق من صبح الأزل ، ويخوض فى الهياكل – وهى فكرة إشراقية ذات مصدر صابئى .

وكان لعلى بن أبى طالب تلاميذ أخذوا العبادة عنه ، وأحبوه كعابد المسلمين الأول . وساروا على طريقته . ويدخل أحدهم على معاوية ، ويطلب منه هذا الأخير أن يصف عليًّا – فيقول فى أجمل وصف لأجمل عابد زاهد . «كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما جشب ، كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا سألناه ، وكان مع تقربه إلينا وقربه منا ، لا نكلمه هيبة له . فإن تبسم ، فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . فأشهد بالله ، لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، يميل فى محرابه ، قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، فكأننى أسمعه الآن وهو يقول : يا ربنا يا ربنا – يتضرع إليه ، ثم يقول للدنيا : إلى تغررت ، إلى تشوقت ، هيهات هيهات ، غرى غيرى – قد بتتك ثلاثا ، فعمرك قصير ومجلسك حقير [٢] » هذا وصف حقيقى للزاهد الإسلامى المتقلب فى القرآن ، يعيش فيه – ولكن ما يلبث التصوف الفلسنى أن يضع على لسان تلميذ آخر له هو صعصعة بن صوحان (وهو أيضاً تلميذ لسلمان الفارسى) ، نظرية صوفية شيعية غالية تجعل من إمامة آدم وإمامة على شيئاً واحداً . فقد كان الإمام فى البدء صاحب الأسماء ، وصاحب العلوم اللدنية آدم ، ثم تعرف بعد ذلك فى على وكذلك وضع التصوف الفلسنى متأثراً بالشيعة تلميذاً لعلى : هو رشيد الهجرى ، فى صورة غنوصية ، فقد كان يحمل العلوم السرية مقابلاً لحذيفة بن اليمان حامل سر الرسول ، وصديق على .

وكان على ينطق بالحكمة ، فنسبوا إليه أقوالا صوفية منها «لو كشف الغطاء ما ازددت إلا يقينا .

---

(١) الحاج معصوم على : طرائف الحقائق ج ١ ص ٢١٧ وما بعدها .

(٢) ابن الجوزى : صفة الصفوة ح ١ ص ١٢١ ، ١٢١ :

obeikandl.com

وهى كلمات قالها عامر بن عبد قيس الزاهد البصرى . ولكن سرعان ما نسبت إلى على ، وغيرها كثير (١) .

كان على حقاً سيد عباد المسلمين ، وقد قال له الرسول ﷺ « يا على إن الله قد زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب إلى الله تعالى منها . هى زينة الأبرار عند الله عز وجل الزهد فى الدنيا » (٢) . ولكن ما يلبث الصوفية المتأخرون أن يضعوا الحديث الآتى ، إن عليا راية الهدى ، وإمام أوليائى ونور من أطاعنى ، وهو الكلمة التى ألزمتها المتقين ، من أحبه أحبنى ، ومن أبغضه أبغضنى (٣) .

لا جرم بعد ذلك أن اندفع الشيعة فى تأمل صورته ، ودفعهم الحب إلى وضع الأحاديث على لسانه ، المعتدلون منهم فى اعتدال ، والغلاة منهم فى مغالاة ، والزنادقة منهم فى زندقة . ولم يسلم صوفية أهل السنة من الوضع أيضاً ، كما لم يسلموا وهم سنة متعصبون - من أخذ بعض الآراء والأفكار الشيعية ، وتبنى محبة على ، كما وضعه معظم الصوفية من أهل السنة على رأس أسانيدهم الصوفية ، بل اعتبروا نشأة الزهد والتصوف على يديه . إذ أن الصوفية تكاد تجمع على أن عليًّا هو الذى ألبس الخرقة للحسن البصرى - رأس أول مدرسة للزهد ، كما أنهم يرون أن المدارس المختلفة للتصوف تتصل به . ولم يحدث هذا عن تشيع سياسى لعلى وإنما عن محبة للرجل ، وبالتالى لآرائه ، ولآراء بعض أتباعه وكأن الصوفى يؤمن بالمذهب السنى أو المذهب الأشعرى بصورة تفصيلية ، ولكن لا يمنعه هذا من أعتناق أفكار شيعية عامة ، يضمنها مذهبه . ولقد فسر الدكتور كامل الشيبى الصلة بين التصوف والتشيع فى صورة جميلة ، ولكنه لم يتنبه إلى أن صوفية الإسلام كانوا فى مجموعهم سنة ، وفى حقيقتهم سنة ، ولكنهم أحبوا عليا وأهل البيت حبا ملك شغاف قلوبهم ، ولكنهم لم يتشيعوا أبدا ، ولم يتعبدوا على النسق الشيعى المعروف .

تلكم لمحات من حياة على ، الروحية الحقيقية والأسطورية ، ماله حقيقة ، وما حمل من آراء : ولكن كيف انعكس توليه لإمرة المؤمنين على طوائف العباد أوالزهاد فى عصره .

أما الطائفة الأولى ، فكانت طائفة القراء ، وكانت هذه الطائفة تنتشر بالذات فى البصرة والكوفة والمدائن ، أما قراء البصرة فلم يشاركوا فى إتباع « سيد العباد » « وربانى هذه الأمة » كانوا عثمانية أوكانوا أقرب إلى القعود أو اتقاء « الفتنة » بينما هرع قراء الكوفة والمدائن وراء على بن أبى طالب . وكانت

---

(١) الدكتور الشيبى : الصلة ج ١ ص ٦٨ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٧٠ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٦٧ .

أصوات هؤلاء ، تدندن بالقرآن فى ليالى معسكره . ولكن ما لبث هؤلاء ، أو مجموعة كبيرة منهم أن اختلفت معه حول « التحكيم » ثم خرجوا عليه مكونين أكبر طائفة ، أو أكبر فرقة زاهدة بمعنى الكلمة فى تاريخ الإسلام ، وهى فرقة الخوارج . والخوارج ، ذو صبغة سياسية تخرجهم عن نطاق هذا البحث . لقد كانوا زهاداً متقشفين حاربوا لأجل عقيدتهم وانتهت آثارهم فى العالم الإسلامى إلا قليلا . ولا نجد فيهم « رنة القلب » وسم الحياة الروحية ، ولم تخرج عنهم نظريات كونية أو جمالية ، ويبدو أن زعيم القراء فى الكوفة فى هذا الوقت وهو عبد الله بن وهب الهمدانى المعروف فى بعض المصادر بابن سبأ ، قد أثار القراء فى الكوفة ، كما أثارهم فى مصر ، حتى قتلوا عثمان بن عفان ، ثم تابعوا عليا واختلفوا معه ، وكونوا فرقة الخوارج ، وقد نفى على بن أبى طالب عبد الله بن وهب الهمدانى ، ولكن بعد أن أهاج القراء ، فخرجوا على على ، ومن العجيب أن فلهاوزن يرى أن السبئية « هم قتله عثمان فتحوا باب الحرب الأهلية ، وأسسوا فرقة الخوارج الثورية ، وتولد عنهم انهيار الإسلام » [1] وبهذا تتضح صورة جديدة لعبد الله بن سبأ ، هو عبد الله بن وهب ، والسبئية هم قراء الكوفة الذين انقلبوا على على ، وسنرى بعد ذلك أن عبد الله بن وهب الهمدانى يشارك فى قتل الحسين ، ثم يقتله المختار بن أبى عبيد عام ٦٧ هـ وستكون السبئية بعد ذلك علما على الخروج على السلطان ، بحيث يدعى حجر بن عدى وأصحابه بالسبئيين لاعتبار موقفهم السياسى أيام خلافة معاوية خروجاً .

أما قراء البصرة فما لبثوا أيضاً أن تركوا عزلتهم وعبادتهم وأخرجوا عبيد الله بن زياد بعد وفاة معاوية بن يزيد ، ووثبوا بالبصرة . وقد آلم هذا صحابيا قديما للرسول ﷺ كان مازال بعد على قيد الحياة — وهو أبو برزة الأسلمى . وكان أبو برزة الأسلمى من أصحاب الصفة القدماء — وكان يحدث أهل البصرة بحديث النبى ﷺ « إن مما أخشى عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى » فلما ثارت الفتن واحدة بعد الأخرى — أخذ يحدث أهل البصرة « إنى أحتسب عند الله عز وجل أنى أصبحت ساخطا على أحياء قريش ، وأنكم — معشر العرب — كنتم على الحال الذى قد علمت من جهالتكم والقلة والذلة والضلالة ، وأن الله عز وجل نعشكم بالإسلام ، وبمحمد ﷺ خير الأنام حتى بلغ بكم ما ترون ، وأن هذه الدنيا هى التى أفسدت بينكم ، وإن ذاك الذى بالشام ، والله إن يقاتل إلا على الدنيا ، وإن الذى حولكم الذين تدعونهم قراءكم ، والله لن يقاتلوا إلا على الدنيا »

---

(١) فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها ص ٣٩٦ . وانظر أيضا البحث الرائع عن السبئية فى الدكتور الشيبى : الصلة ح ١ ص ٩٠ .

فلما سئل : بما يأمر إذن . فقال : لا أرى خير الناس اليوم إلا عصابة ملبدة ، خماص البطون من أموال الناس ، خفاف الظهور من دمائهم » ثم دعاهم إلى الذكر فقال : لو أن رجلا فى حجره دنانير يعطيها ، وآخر يذكر الله عز وجل ، لكان الذاكر أفضل [١] وكأن أبا برزة الأسلمى كان يود أن يبقى قراء البصرة فى قراءتهم وعبادتهم ، وأن يمثلوا أصحاب الروح فى الإسلام بعيدين عن المعترك السياسى ، وقد رأى أن مروان وبنى أمية فى الشام يقاتلون على الدنيا ، والزبير فى مكة وهؤلاء الذين يدعون بالقراء من أتباعه فى البصرة يقاتلون على الدنيا . وسنرى عابدا من كبار العباد وفى عصر متأخر عن هذا العصر — وهو الفضيل بن عباد (المتوفى عام ١٨٧ هـ) ينصح أحد أتباعه بالتباعد من القراء فيقول « تباعد من القراء ، فإنهم إن أحبوك ، مدحوك بما ليس فيك ، وإن أبغضوك ، شهدوا عليك ، وقبل منهم [٢] ونستنتج من هذا أن القراء — الذين نشأوا فى أرباض مكة ، وفى سهول المدينة — أول ممثلين للحياة الروحية الإسلامية — قد انتهوا إلى طائفة تأخذ بالدنيا ، وتقبل عليها ، وتشارك فى الفتن والإحن ، ثم انقلبوا إلى مراءة وصناعة . ولكن مما لا شك فيه أنهم أدوا مهمتهم الأولى — لقد أذكوا روح القرآن فى عدد كبير من الناس ، وحفظوا القرآن فى القرن الأول . ثم خرجت منهم طائفة « القصاص » وكان لهذه الطائفة أيضا أثرها فى إذكاء الحياة الروحية فى الإسلام ، وسنتكلم عن هذه الطائفة حين نبحث عن نشأة الزهد وتطوره فى مدرسة البصرة .

أما الطائفة التى تمثل الحياة الروحية فى الإسلام ، والتى ظهرت أيضا فى عهد على وخلال الفتنة بينه وبين معاوية ، فهى طائفة المعتزلة ونحن نعلم أن المعتزلة نشأت عبادية لا عقلية فريق من كبار الصحابة ، اعتزلوا الخلاف بين على ومعاوية ، وبقى البعض الآخر فى منازلهم ، وذهب البعض الثانى إلى الثغور ، يتعبدون الله ، ويقرءون القرآن . ومن هذه الطائفة المعتزلة الزاهدة خرجت فيما بعد : فرقة المعتزلة ، وقد اشتهرت هذه الفرقة العقلية — فيما بعد — بزهد أصحابها ، وكان واصل بن عطاء وعمرو ابن عبيد يعرفان بالتزهد والتقشف .

وقتل على بن أبى طالب — ربانى الأمة ، وقد أنكر على شيعته . قبل وفاته إغراقهم فى الترف ، فقد رآهم مرارا يأتون إليه ، وليس فيهم ما أراده فيهم ، حلماء علماء ذبل الشفاه أخيارا يفترشون الجباه ، مذلين أنفسهم العاتية يفارقون المؤثرى الدنيا من الطغاة [٣] — فقال « ومالى لا أرى فيهم سيما الشيعة . . . خمص البطون من الطوى ، يبس الشفاه من الظما ، عمش العيون من البكا » [٤] وسنرى

(١) أبو نعيم الحلية ج ١ ص ٣٢ ، ٣٣
(٢) السلمى : طبقات الصوفية ص ١١ .
(٣) أبو نعيم : حلية الأولياء ج ١ ص ٨٦ .
(٤) المبرد: الكامل ج ٣ ص ٢٠٤ .

أن هؤلاء الذين جرعوه الغيظ حيا ، يحاولون الإغراق فى التوبة والندم والبكاء ، فينشأ فيهم التوابون والبكاؤون ، وتسيطر الروح – وسط العواصف السياسية ، والنزعات الدنيوية ، ويشيع فى العالم الإسلامى « إشراقة ضمير » . . . تبقى بعد ذلك نبراسا لصوفية الإسلام حين يتكون التصوف – كمذهب وكطائفة لها خصائصها التى تميزها عن غيرها من طوائف الإسلام كالفقهاء – والمتكلمين .

لا جرم أن أصبح ربانى الأمة – بعد ذلك رأس السلاسل الصوفية ، ورأس السند الصوفى والزهدى وأن يتجه إليه أصحاب الروح فى الإسلام – متأملين متعشقين . وأخذ الصوفية يحملون صورته أحاسيسهم ومشاعرهم . ولم يفعلوا هذا – صادرين عن نظام شيعى ، بل عن تأمل روحى عميق فى حقيقته المتصلة بنبى الإسلام ، واستمداده لعلمه من روح القرآن . وكان هؤلاء الصوفية أهل سنة فى مجموعهم . وسنرى أنه كان من أهم ما يعنى به الصوفية هو تأكيدهم التام بأن عقيدتهم هى عقيدة أهل السنة والجماعة ، فيتبنون فى مقدمة كتبهم ، عقائد السنة ، بما فيها من موالاة الخلفاء الأربعة -أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، ثم لا يقدح فى هذه العقيدة بعد – أن يتميز على بن أبى طالب عن الآخرين بأنه المثال الأكمل للعلم الصوفى ، وللحياة الصوفية ولا يقدح فى هذا أيضا فى أنه كان للآخرين أيضا من الخلفاء بعض المشاركة فى هذا العلم وفى هذه الحياة .

وعاشت صورة على بن أبى طالب الزاهدة والعارفة فى دوائر زهاد أهل السنة والجماعة وصوفيتهم فيما بعد – حية زاهية . وكان وسم على بن أبى طالب بربانى هذه الأمة صادرا عن رجل من أهل السنة والجماعة هو الحسن البصرى ، بل اتهم الحسن البصرى بموالاة بنى مروان . وبقيت صورة على بن أبى طالب الزاهدة العارفة فى قلوب أهل السنة والجماعة حتى الآن . أما لدى الشيعة ، فقد كان الأمر على خلاف ذلك . ما أنتهى القرن الأول ، وأنتهت صفحات التوابين والبكائين من المسلمين ، حتى أنمحت صورة على الزاهد فى حياة الشيعة ، وحل محلها صورة على « الإمام » ، صورة على ذى الحق السياسى المقدس عند المقتصدة من الشيعة ، وصورة على الولى الغنوصى لدى الغلاة منهم ، كان الشيعة الغلاة يتسمون بالزهد ، ويتمسحون بالأسرار والطلاسم ، ولكنهم فعلوا هذا عن طريق غنوصى أجنبى . وبينما عاش على المحب الزاهد العالم العابد فى قلوب صوفية أهل السنة ، عاش على المغيظ الحاقد فى قلوب غلاة الشيعة . وقد اندفع الشيعة إلى جمع المال ، فأثروا أشد الثراء ، وينعكس هذا على المشاهد الشيعية المقدسة ، المزينة بالذهب والياقوت والزبرجد وشتى الجواهر ، بينما شاعت فى مساجد مشيخة الصوفية من أهل السنة البساطة والخلو من السرف والتأنق .

أما أن فلاسفة الصوفية ، وبخاصة المتأخرين من الفرس ، قد أعتبروا عليا سر الوجود ، وصورة

تركيب العالم ، وأنه الوجود ، ولولاه لسرى العدم فى العالم الموجود ، فلا شك أن هؤلاء الفلاسفة من الصوفية قد فعلوا هذا متأثرين بكل ما حولهم من غنوصيات . والتصوف الفلسفى الإسلامى غير التصوف الإسلامى السنى ، لقد كان الأول ملفقا منسقا مجمعاً ، بينما كان الثانى صادرا عن القرآن والسنة ، واحتضن عليا فى نطاقيها ، وأخرج لنا - علم الأخلاق الإسلامى .

وكان مقتل على (عام ٤٠ هـ) عهداً فاصلا بين عهدين واضحين كما نعلم : عهد الخلفاء الراشدين ، وعهد بنى أمية . وقد انعكس هذا بوضوح على الحياة الروحية فى الإسلام .

كان الإسلام الأول - يرى الدين أساسا للدولة ، ولذلك شاعت العبادة - وهى روح الزهد - لدى حكام المسلمين ولدى المجموعة الكبرى من الصحابة . ومن الخطأ القول إن هذا الزهد كان زهدا ماديا يتمثل فى الملبس الخشن ، والطعام البسيط ، والاستهانة بالمال وإنفاقه فى سبيل الله . حقا فعل هذا الصحابة فى ملبسهم ومأكلهم ولكن انقدح فيهم أيضا الجانب الروحى : إقبال على القرآن وتذوقه والراحة إليه ، وقيام الليل والنهار . والتهجد والتقلب على المضاجع والذكر . ثم إنبثق فى البعض منهم : كعمر وعلى وحذيفة : علم غيبى أو لدنى وتأمل غيرهم من الصحابة القرآن ككل ، فنرى عبد الله بن مسعود يقول : القرآن مأدبة الله ، وهى كلمة تحتوى معان عميقة . وبلا شك أنها أثارت الصوفية فيما بعد إلى تلاوة القرآن ، وتطبيق المنهج الاستنباطى عليه : والمنهج الاستنباطى الصوفى هو محاولة النفوذ إلى داخل هذه المأدبة الربانية . فتنفتح المعانى الذوقية على الصوفى ، وخلاصة القول فى هذا العهد كله أنه أعتبر الإسلام الحقيقى . هو دين العبادة والزهد ، وزهد صحابة هذا العصر - على تفاوت بينهم ، منبثقين عن القرآن والسنة ، مختلفين فى زهدهم - إلى حد ما - فبينما ينهى عبد الله بن مسعود بعض أصحابه عن التعبد فى الجبانات ، نرى عليا يأخذ تلميذه كميل بن زياد لوعظه فى الجبانات ، ولكن طريق الجميع كان ينبثق عن مصدر واحد . ومن أهم ما نلاحظه أننا لا نجد كلمة الزهد أبدا تظهر كمصطلح كما أننا لا نجد كلمة التصوف كما أننا لا نجد أبدا مصطلحى العلم الظاهر والعلم الباطن .

وكان الإسلام الثانى - إسلام بنى أمية ، يرى الدولة أساسا للدين . فبدأ تفسير آخر للإسلام ، مخلصا أول الأمر ، على يد عثمان ، يرى أن تجمع الكنوز ، فتنفق فى سبيل الله ، وكان الرجل - برغم أناقته ورفاهة عيشه يتعبد الليالى ، ويعيش مع القرآن ، ولكنه أحب عشيرته حبا أنساه الكثير من مثل الإسلام المكى الأول ، فوقع - بدون أن يشعر ، فى مزالق أسلمت الحياة الإسلامية كلها إلى بنى أمية الحاقدين الحقد الخفى الدفين على الإسلام والمسلمين ، وقد قيل : إن بنى أمية تابعوا الغزو ، فنشروا الإسلام . كأن هذا لم يكن يحدث ، لوتولى أمر المسلمين ، غير بنى أمية من عباد المسلمين وخلصائهم

obeikandl.com

الكبار . ثم إن بنى أمية فعلوا هذا لإثراء خزائنهم وملئها . وفرضوا أقسى الضرائب والمكوس على البلاد المفتوحة ، بل كانوا يمنعون الناس من الدخول فى الإسلام ، حتى لا تقل دخولهم من جزية غير المسلمين . وجاء عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى الزاهد – فأبطل هذا فيما بعد :

وفزع جماعة من أوفياء المسلمين وخيارهم من تقلب مفهوم الدولة لدى خلفاء دمشق ، فبدأت صورة العبادة المختلفة فى شتى المدن ، فنشأت مدارس العبادة أو مدارس الزهد ، وكان لكل مدرسة عوامل مختلفة عاونت على إنشائها . وستتبع نشأة تلك المدارس فى القرن الأول والقرن الثانى موضوعيا وتاريخيا . ومن الصعوبة بمكان أن نفصل بين نشأة تلك المدارس وتطورها فى كل من القرنين الأول والثانى ، فإن تداخل هذين القرنين فى حياة تلك المدارس واضح تماما ، كما أن من الصعوبة أيضا أن نفصل بين هذه المدرسة أو تلك ، فتكاد تكون العوامل المشتركة فى نشأتها واحدة ولكننا سنجد اختلافات بيئية ، قد تحدد معالم كل مدرسة . وقد ذهب مؤرخو الحياة الروحية فى الإسلام إلى أن الزهد قد انتهى – بعد الصحابة إلى ثمانية : عامر بن عبد الله بن قيس وأويس القرنى وهرم بن حيان والربيع بن خيثم ومسروق بن الأجدع ، والأسود بن يزيد وأبو مسلم الخولانى والحسن بن أبى الحسن [١] وقد كان هؤلاء من سادة التابعين ، أخذوا عن الصحابة ، وتتلمذوا عليهم فى مختلف البلاد الإسلامية . فكأن نشأة المدارس إذن تعود إلى التابعين ، بعد أن ضخمت الحياة الإسلامية وتشعبت . ومن الثابت أيضا أن مجموعة العباد أو الزهاد قد نشأوا جميعاً عن طائفة القراء ، كما نشأ عن هذه الطائفة أيضا الفقهاء والمتكلمون كما كان من طائفة القراء أيضا القصاص . ولقد كان الزهد فى البصرة أميز منه فى أية مدينة أخرى . ولذلك فإننا سنحاول توضيح الحياة الروحية فيها أولا ، ثم نعقب بتاريخ الحياة الروحية فى المدن الإسلامية الأخرى .

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٨٧ ابن الجوزى : صفة الصفوة ج ٣ ص ٢٥ ، ١٢٧